kitabweb-2013.forumsmaroc.com

القول الجامع في تاريخ دمنات وما وقع فيها من الوقائع

تأليف:
الحاج أحمد نجيب الدمناتي
(1903 - 1981)

ضبط النص وقدم له:
أحمد بن محمد عَمَّالك

القول الجامع في تاريخ دمنات
وما وقع فيها من الوقائع

تأليف

الحاج أحمد نجيب الدمناتي
(1903 - 1981)

ضبط النص وقدم له:

أحمد بن محمد عمالك

حقوق الطبع
محفوظة للمؤلف

الإيداع القانوني:	2011 MO 2888

المطبعة
والوراقة الوطنية
زنقة أبو عبيدة، الحي المحمدي، الداوديات- مراكش
e: 05 24 30 37 74/05 24 30 25 91
m: 05 24 30 49 23
iwatanya@gmail.com w ww.elwatanya.ma

القول الجامع في تاريخ دمنات
وما وقع فيها من الوقائع

تأليف

الحاج أحمد نجيب الدمناتي

(1903 - 1981)

ضبط النص وقدم له:

أحمد بن محمد عمالك

صورة المؤلف:

الحاج أحمد نجيب الدمناتي

بسم الله الرحمن الرحيم

كلمة شكر

أود أن أتقدم بالشكر الجزيل إلى أسرة الحاج أحمد الدمناتي، بشقيها نجيب والفتاوي، ولاسيما الحاج محمد رحمه الله، الذي لم يكتب له أن يشاهد هذا العمل، وقد كان دائب الحرص على نشره قبل وفاته. فهو الذي هيأ لي، بكل أريحية، نسخة مصورة من "القول الجامع..."، وشجعني على إخراجه. فجزاه الله خيرا. وبعد وفاته، لم يذخر ابنه البار، السيد ياسين الفتاوي، أي جهد في حثي على مواصلة العمل، والكريم إذا بدأ أتم، حتى إذا استوى الكتاب على سوقه، بادر إلى تحَمُّل نفقة طبعه. فله مني كل آيات الامتنان والعرفان.

كما أنني مدين بتقديم خالص الشكر للسيدين الفاضلين عبد اللطيف نجيب ومحمد نجيب ابني المؤلف؛ إذ أعارني السيد محمد النسخة الأصلية من الكتاب، لما دعت الحاجة إلى الرجوع إليها لحل بعض ما أُشكل عليَّ قراءته في النسخة المصورة.

وتفضل الأستاذ عبد اللطيف بتركيب صورة الغلاف، ومنحني صورة للمؤلف رحمه الله. كما استجاب لاستفساراتي المتكررة، حول أسماء بعض الأمكنة والمواقع المذكورة في النص.

والشكر موصول إلى أصدقائي الأعزاء أخص منهم الأستاذ العالم الفاضل، الدكتور عباس أرحيلة، والشريف الغطريف، الأستاذ الجغرافي مولاي الطاهر بن عبد الرحمن العلوي، لما كان لهما من أياد بيضاء على هذا العمل.

ولا ينبغي أن أغض الطرف عن كل من يسر لي الله لقاءهم، فاستوقفتهم من أجل الاستفسار عن معنى لفظة، أو اسم مكان أو نهاية حدود قبيلة أو فرقة، أو غير ذلك مما عرض لي في أثناء التحريات الميدانية التي قمت بها في المجالات التي شهدت وقائع هذا النص؛ أخص منهم السيد عبد الحميد الفتاوي.

فاللهم أجزل لهم جميعا الأجر والمثوبة، وأمطر شآبيب الرحمة والرضوان على الحاج محمد الفتاوي، وأسكنه بفضلك فسيح الجنان.

كما أضرع إليه عز وجل أن أكون، بإسهامي في إخراج هذا النص، قد حققت أمنية مؤلفه الحاج أحمد نجيب الدمناتي رحمه الله، وقدمت زكاة العلم لتاريخ مدينة دمنات، ووضعت تحفة دمناتية بين أيدي القراء عامة والمؤرخين خاصة. نسأل الله الهداية إلى الرشد، والتسديد في القول والعمل؛ والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات.

محتويات التقديم

مقدمة ١

التقديم ٣

المبحث الأول: مع مؤلف الكتاب، نجيب الدمناتي ٣

1ـ انتقال والد المؤلف من الصويرة إلى دمنات ٣

2ـ مرحلة الطلب والرحلة ٤

3 ـ انخراطه في الزاوية الكتانية ٥

4 ـ الدخول إلى معترك الوظائف ٦

5 ـ لمحة عن مكانته ومواقفه ٧

6 ـ رحلاته إلى الحج ٨

المبحث الثاني: مع الكتاب ١٠

1 ـ موضوع الكتاب ١٠

2 ـ أهميته ١٠

3 ـ مصادره ١١

4 ـ ظرفية التأليف ١١

5 ـ طريقة التأليف ١٢

6 ـ لغة الكتاب وأسلوبه ١٣

المبحث الثالث: مدى أصالة نجيب الدمناتي في "القول الجامع..." ١٤

1 ـ مع كتاب "التسلي عن الآفات بذكر الأحوال وما فات" ١٤

2 ـ الألفات إلى تاريخ دمنات ١٦

3 ـ وثائق ومستندات خاصة ١٧

4 ـ حضور ذات نجيب الدمناتي في مؤلفه ١٨

المبحث الرابع: مع قضايا "القول الجامع..." ٢١

1ـ دمنات: من البادية إلى الحاضرة ٢١

2 ـ حضور اليهود في دمنات ٢٤
3 ـ دمنات حاضرة إينولتان (ولتانه) ٢٥
4 ـ نماذج من الاستبداد قابلها الانتفاض..... ٢٦
ا . نهب دار القائد..... ٢٨
ب . رجوع الجيلالي الدمناتي قائدا على ولتانه وانتقامه من المنتفضين..... ٣٢
ج . اغتيال القائد الجيلالي الدمناتي..... ٣٥
د . اختيار قائد المنتفضين وخذلانه ٣٧
هـ . دخول اكّلاوه حلبة الصراع على قيادة إينولتان ٣٩
و . قيادة علال المزواري الثانية ٤٠
ز . عبد المالك المزواري قائدا لإينولتان ٤٢
5 . حلقة من بطولات رجال الأطلس ٤٣
ا ـ وقوف إينولتان في وجه الغزاة..... ٤٣
ب ـ احتلال هنتيفة بدون مقاومة..... ٤٦
ج ـ نهوض سيدي مح الحنصالي بأعباء الجهاد ٤٨
د ـ معركة إمنزمايز واحتلال أزيلال..... ٤٩
هـ ـ المدني الاكّلاوي يحاول استقطاب بعض السذج ٥٢
و ـ معركة بوصالح وغزو أيت عتاب ٥٣
ز ـ انهزام الغزاة في معركة أيت مَحمد ٥٤
6 . إفادات اجتماعية واقتصادية وثقافية متفرقة من إينولتان والقبائل المجاورة..... ٥٧
خاتمة ٥٩
المبحث الخامس: منهج ضبط النص وعملي فيه ٦٠
1 ـ طبيعة المخطوطة ٦٠
2 ـ وصف المخطوطة..... ٦٠
3 ـ عملي في ضبط النص ٦١

مقدمة الكتاب

الحمد لله الذي ذرأ الإنسان في الأرض، وجعلها له ذلولا في الطول والعرض، وبسطها له ليعمرها فبنى وشيد، وسلك السبل والفجاج ومهد؛ وصلى الله على سيدنا محمد النبي الأمين، وآله وصحبه الغر الميامين، وسلم تسليما كثيرا يا رب العالمين.

أما بعد، فهذه محاولة لضبط كتاب "القول الجامع في تاريخ دمنات وما وقع فيها من الوقائع"، لمؤلفه الحاج أحمد نجيب الدمناتي. وهو كتاب يؤرخ لمدينة دمنات، منذ تأسيسها حتى السنين الأولى من عهد الاستقلال، مع عناية خاصة بظاهرة استبداد القواد التي انتهت لصالح سلطات الحماية الفرنسية بالمغرب؛ حين أصبح هؤلاء أداة طيعة وفعالة في تطويع القبائل المناهضة للاحتلال. ومن هنا استفاض المؤلف في الحديث عن قيادات ولتانه، وتتبع أطوار المعارك التي دارت أطوارها فوق الأراضي المجاورة لها، بين جيش الاحتلال الفرنسي وبين القبائل.

وللكتاب أهمية الوثيقة التاريخية لمعرفة مدينة دمنات، لحظة التحولات العميقة التي غيّرت وجه المغرب عامة، وما عرفته من صراعات مع قبائل متاخمة لها، وكانت كثير من المعلومات التي ينطوي عليها الكتاب مستمدة من أناس شاركوا في معترك تلك التحولات، إلى جانب ما كانت تزخر به بيوتات المدينة من نظار وقضاة وعدول. فالكتاب فريد في بابه؛ يقدم إسهاما جديدا في ميدان التأليف التاريخي، ويعرض لنا نموذجاً

للكتابة التقليدية التي كانت سائدة في البادية المغربية؛ ومن هنا يكون ظهور هذا الكتاب إضافة حقيقية إلى الخزانة المغربية.

وكما هو مقرر في التقديم لتحقيق الكتاب المخطوط، فقد عرضت في المبحث الأول للتعريف بحياة مؤلفه، وثنيت في مبحث تالٍ بأهمية الكتاب وقيمته وما يتميز به في مجال التأليف التاريخي، وخصصت المبحث الثالث لتجلية أصالة المؤلف في موضوعه هذا، أما المبحث الرابع فعقدته لإبراز القضايا التي اشتمل عليها الكتاب، في حين تناولت في المبحث الخامس منهجي في التحقيق وعملي فيه.

وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب.

مراكش في 25 شوال 1432 / 24 شتنبر 2011.

أ. م. ع.

التقديم

المبحث الأول: مع مؤلف الكتاب، نجيب الدمناتي

1- انتقال والد المؤلف من الصويرة إلى دمنات :

عرف المؤلف بنفسه فقال: "[أنا] نجيب الحاج أحمد بن الحاج إبراهيم بن الحاج أحمد بن الحاج عبد الله بن الحاج مبارك الحاحي" نِجارا، الدمناتي موطنا وقرارا. وأضاف إلى ذلك عند ترجمة والده: "الصويري السملالي الحاحي"[1]. أي أن أصله يتصل باتحادية حاحا السملاليين، من قبيلة إدَ وسرن، فخدة إمِ نْ ثلتْ.

ورد جده الصويرة من جملة البيوتات التي أمر السلطان سيدي محمد بن عبد الله العلوي بنقلها إلى تلك المدينة المؤسسة حديثا. وكانت دارهم بها لا تزال معروفة يومئذ بدرب بناصر.

لكن ذلك الجد غادر الصويرة، لأسباب نجهلها، ليستوطن إمِ نْ تلت، سابقة الذكر. وسبب انتقال والد المترجم إلى دمنات، أن أخا له يسمى عليا قد حرمه إخوته من نصيبه من الإرث، فخرج من بلدته مهاجرا، الأمر الذي أجبر والد المترجم على الخروج، هو أيضا، للبحث عنه. فوجده لائذا بضريح أبي يعزى يلنور، المعروف بجبل تاغيا. لكنه بدل أن يعود أدراجه، فضل الاستقرار بتلك القرية، حيث "شارطه" أهلها لتعليم أولادهم القرآن الكريم.

غير أنه سرعان ما غادر تلك البلدة ليتوجه إلى أيت وَوْنَنوسْتْ من ولتانة، حيث لقي عليا بن سليمان البوجمعوي، الذي رشحه ل "الشرط" بمسجدهم. قضى الحاج إبراهيم هنالك مدة غير يسيرة، حتى تخرج به عدد من حفظة كتاب الله، قبل أن ينتقل إلى مسجد آخر، بموضع يدعى تُفْعْماتْ بالفرقة ذاتها؛ لكنه لم يلبث أن غادره صوب

---

[1] القول الجامع، م. س. ص. 75.

مسجد لحْرونَه الجامع الواقع غربي دمنات. ومن المدشر الأخير، انتقل إلى هذه المدينة، حيث ألقى عصا التسيار، وسكن دار أجبلي في أعلى السوق، لينكب كعادته على تحفيظ القرآن الكريم. ثم انتقل بعد ذلك بالصبيان إلى مسجد الزاوية الكتانية، قادما إليها من عرصة القاضي محمد بن حَمُّ كُرْدَاسْ الذي كان قد انتدبه لتعليم أبنائه. وفي تلك الأثناء اشترى دارا بالملاح القديم، قام بإصلاحها ليستقر بها. وفي تلك الدار، رأى المترجَم النور سنة 1903م.

2 – مرحلة الطلب والرحلة:

وما أن بلغ سن التمييز، حتى اصطحبه والده إلى المدرسة القرآنية الملحقة بمسجد أرحبي، لحفظ كتاب الله تعالى، حيث جمعه عليه، برواية ورش عن نافع. وقد كان والده متصدرا بذلك المسجد، مدرسا وإماما راتبا.

بعد تلك المرحلة، عزم على خوض غمار الرحلة من أجل توسيع مداركه بتحصيل العلم؛ فتوجه صوب مدرسة تاگلاووت الناصرية، التي كان قد سبقه إليها أخوه الأكبر ـ محمد ـ للتفنن في "الروايات"، على يد الشيخ العشري المكي بومصاض، حيث جمع عليه القرآن برواية ابن كثير. كما قرأ بها أيضا على يد الفقيه محمد بن ألعيد الكرولي. ويذكر المترجم أنه شارك أخاه في مباديء العلوم؛ أي أنه انتقل إلى تحصيل ما كان يدعى يومئذ بعلوم الآلة.

ومن تاگلاووت شد الرحال، إلى أيت ماجطن، للأخذ عن الفقيهين الأخوين مُحمد ومَحمد ابني أحمد الماجطني بإگي[2]، حيث جاورهما ما ينيف عن عامين. ومنها سافر مُغَرِّبا، من جديد، إلى مدرسة أخْليجْ[3] بوريكة، حيث أخذ عن الفقيه الحسن الحميدي الشّتاشْني مدة سنة.

---

[2] إگي فرقة من قبيلة أيت ماجطن التي تمتد مواطنها شمال وشمال شرقي دمنات على ضفاف الواد الاخضر. التحري الميداني.

[3] مدرسة أخليج: تقع هذه المدرسة بالقرب من دار القائد الوريكي بفرقة اسكَور من وريكة، شرق جنوب شرق سوق الاثنين، غير بعيد عن ضفة الواد اليمنى قبل خروجه إلى السهل. ولعلها من مخلفات زاوية أمكدول السملالية. وقد ظلت تعج بالطلبة حتى سنوات السبعين من القرن العشرين. وهي اليوم أثر بعد عين. تحريات ميدانية.

ومن وريكة ارتحل إلى فخدة السكّارة، بمنطقة الويدان[4]، من قبيلة الرحامنة، قبل أن يرد مدرسة مولاي الجيلالي الجعيدي، لمجاورة الشيخ أحمد بن مَحمد المسفيوي اليعقوبي، المدعو أكْرام. وقد لهج به المترجم قائلا: "وهو عمدتنا وقدوتنا وولي نعمتنا... فكنا في هذه المدرسة بين ستين طالبا يزيدون وينقصون، مدة تزيد عن ثلاث سنين، في غاية الجد والاجتهاد".

وأخذ أيضا عن علماء آخرين، منهم الشريف محمد بن محمد الحجوجي الفاسي، والسيد البصري السرغيني، والفقيه محمد بن محمد بن عبد العالي الوودنوستي الذي ابتدأ معه قراءة أبي العلاء البصري، والفقيه أحمد بن بوجمعة السرغيني التَّسوُّتي.

وقرأ ابن عاشر والمقنع وصفة المنازل على الشيخ الجيلالي بن أحمد، بزاوية أبي الجعد ببني زمور. وكان شيخاه في النحو الفقيه الأديب أحمد بن عبد الرحمن الزاياني، بزاوية سيدي عيسى أو نوح الناصرية، قرب مدينة خنيفرة؛ والفقيه محمد بن محمد أو سوس الفطواكي الذراعي، أخذ عنه بمدينة مراكش. ولا شك في أنه قد أخذ عن عمر المزواري، لأنه كان يلازم مجالسه فطلب منه الإجازة[5].

بعد تلك الرحلة التي استغرقت حوالي عشر سنين، رجع مليء الوطاب إلى مسقط رأسه، وكان قد صلب عوده واستوى، فتصدر لمساعدة والده في شؤون المدرسة، مدرسة أرحبي، التي كانت تأوي ما يناهز مائة وعشرين طالبا، منقطعين للدراسة.

3 – انخراطه في الزاوية الكتانية:

لم يكن المترجم ليشذ عما كان يفعله أقرانه، حيث انخرط في سلك الزاوية الكتانية، متأسيا بوالده الحاج إبراهيم، الذي اعتاد أن يتصدر

---

[4] تقع الويدان شرقي مدينة مراكش على بعد حوالي ستة عشر كلم.

[5] طلب منه المدعو محمد بن صالح أن يخبره عمن أخذ، فكتب له بطاقة بالشيوخ المذكورين. وثيقة من مستندات الحاج محمد الفتاوي.

بمسجد القصبة الدمناتية، لشرح قصيدتي البردة والهمزية، في أثناء الاحتفال بذكرى المولد النبوي. ومعلوم وأن دمنات قد شهدت نشأة فروع كثير من الزوايا المعروفة في بلاد المغرب. ويبدو أن الحاج إبراهيم كان حظيا عند الكتابيين، حتى إن عبد الحي الكتاني قد أجاز المؤلف بسنده المتصل في رواية صحيح البخاري. وقد أثبت نص الإجازة بخطه على دفة مؤلفه"منح المنة في سلسلة بعض كتب السنة"[6] الذي أهداه إليه. فكتب المترجم في حاشية الإجازة:"هذه إجازتي التي أفتخر بها في حياتي وبعد مماتي".

4 – الدخول إلى معترك الوظائف :

وباقتراح من قاضي دمنات السيد محمد بن مبارك الوودنوستي، اجتاز مباراة "العدالة" بنجاح. فتم تعيينه عدلا شرعيا بمحكمة تلك المدينة. ولما توفي أخوه محمد بن الحاج إبراهيم، الذي كان إماما وخطيبا بمسجد القصبة، وأستاذا للقراءات بالمدرسة الملحقة به، خلفه مترتبا للإمامة ومتصدرا للتدريس، بظهير سلطاني مؤرخ في 18 جمادى الأولى عام 1364، موافق فاتح ماي 1945[7]. لكن دون الخطابة، لأنه كان خطيبا بمسجد أرحبي، منذ سنة 1353/ 1934، ترتب لها بعد وفاة الشيخ القاضي أحمد كرداس، ليستمر محتفظا بتلك الخِطة حتى سنة 1971/1391[8].

وقد حظي، إلى جانب ذلك، عند القائد عمر المزواري الاگلاوي حتى انتدبه كاتبا له، فغدا بمثابة ساعده الأيمن، يرافقه في الجلسات الدورية التي يعقدها للفصل في الدعاوي، بمقر الحاكم الفرنسي ب"بيرو" دمنات. فكان المترجم هنالك مكلفا بتحرير محاضر الأحكام، والتقارير المنبثقة عن جلسات القائد. ويبدو أن صلته بعمر المزواري قد تعدت إطار العمل، لترتقي إلى علاقة حميمية، لم تكن المصاهرة إلا

---

[6] والكتاب المذكور من ضمن كتب خزانة الحاج محمد الفتاوي، والحاشية المذكورة مكتوبة بلون أحمر.

[7] أحمد نجيب الدمناتي: القول الجامع وما وقع في دمنات من الوقائع، ص. 70.

[8] القول الجامع.. م. س. ص. 75.

إحدى تجلياتها. فقد زوجه القائد المذكور بأخته السيدة زهرة بنت المدني الاكَلاوي. وحج المترجم ثلاث مرات: الأولى سنة 1954، والثانية سنة 1964، والثالثة سنة 1966، الأمر الذي زاد في اتساع أفقه الثقافي. وسنرجع إلى ذلك وشيكا إن شاء الله.

5 - لمحة عن مكانته ومواقفه:

يتبين من ثنايا كتابه، أنه قد حاز نصيبا من العلم، وبخاصة فيما يتصل بالفقه واللغة والأدب والنحو والتاريخ. وله محاولات شعرية مهلهلة، بث بعضها ضمن هذا النص. واشتهر بمعرفة فن الخط، كما يبدو مما وقفنا عليه، سواء في مخطوطة القول الجامع، أو في بعض رسائله. ففضلا عن إتقانه الخط العدلي الجميل، الذي ينحو منحى المبسوط المغربي، فإن له محاولات على النمط الأندلسي المتأخر.

وكان دائب الحركة والنشاط، كما رأينا من تعدد أعماله ووظائفه، إلى جانب ما تمتع به من قوة الشخصية، وصلابة القناة؛ الأمر الذي جعله يحظى باحترام الخاصة والعامة من الناس. وهنا لا بد من أن نقف عند حادث وقع للمترجم، نستدل به على ما ذكر. ففي عيد الأضحى عام 1388، وقد وُكِلت إليه إمامة صلاة العيد، التحق بالمسجد في الساعة التاسعة صباحا، قبل ثلاثين دقيقة على حضور الصلاة. فمكث في قاعة الجنائز الملحقة بالمسجد ينتظر قائد المدينة؛ ولما كانت الساعة التاسعة وثلاثين دقيقة، أمر بالحضور للصلاة في غياب ذلك المسؤول. بعدها وجه إليه القائد رسالة شفهية يوبخه على عدم انتظاره. فما كان من المترجم إلا أن بعث إليه بجواب يدافع فيه عن نفسه، ويختتمه بالاستعفاء من تلك الخطة[9].

ومن تضاعيف كتاب "القول الجامع..." يبدو الحاج أحمد نجيب الدمناتي ولوعا بالمطالعة والتحصيل، وما يتصل بها من اقتناء الكتب. فقد يسر الله له أن يجمع خزانة وقفنا فيها على نوادر المخطوطات،

---

[9] الرسالة مؤرخة في عاشر حجة 1388، من وثائق أخيه الحاج محمد الفتاوي رحمة الله عليه.

منها ـ فضلا عن القول الجامع ـ نسخة فريدة من كتاب تفسير غريب الموطأ، الذي ألفه عبد الملك بن حبيب الأندلسي (ت.238 هـ)؛ وكان أخو المترجم السيد محمد الفتاوي قد أهداه إلى مكتبة الحرم المكي، فصدر محققا بعناية الشيخ عبد الرحمن العثيمين[10]. كما تحتجن تلك الخزانة مخطوطات نادرة، في ميادين الفقه والشعر والفهارس والرحلات، فضلا عن بعض المطبوعات الحجرية[11].

وعلى الرغم من أن الحاج نجيب أوصى بتحبيسها[12]، فقد كادت تذهب أيادي سبأ، كما وقع لخزانات مماثلة، لولا أن قيض الله لها الحاج الفتاوي ـ شمله الله بعفوه ـ الذي شمر عن ساعد الجد لاسترجاع ما توزع منها بين ورثة أخيه المترجم. فقام بشراء أنصبة الورثة ليجمعها في خزانته الشخصية، ولم يكن يضن بها عن الباحثين[13].

6 - ومن أثاره : رحلاته إلى الحج :

ومما ينبغي أن نشير إليه كذلك أن مؤلف "القول الجامع.."خلف ثلاث رحلات، دَوَّنَ في الأولى وقائع حجة سنة 1954/1373، وهي بعنوان"منحة الملك القدوس السلام في حج بيت الله الحرام". وقد كانت رحلة برية، سافر في أثنائها صحبة رفقة تكونت من أربعة رجال (هو خامسهم)، على متن سيارة خفيفة، عبروا خلالها بلدان شمال أفريقيا. وهي رحلة مفيدة، بما كان يمور في سياقها من نضال شعوب المغرب والجزائر وتونس، في سبيل استرجاع حريتهم من أيدي الاستعمار الفرنسي الغاشم. ويبدو أن سياق البلاد المعروف يومئذ، والذي تميز بنفي الملك محمد بن يوسف، واشتعال فتيل حركة الفداء، لم يكن يسعف لولا العلاقة الطيبة التي كانت تصل المترجم ببعض رجال الحركة الوطنية.

---

[10] صدر في جزأين سنة 2001/1421، مكتبة العبيكان، الرياض، المملكة العربية السعودية، ص. 162.

[11] سننشر إن شاء الله تعالى بحثا خاصا عن محتوياتها.

[12] والتحبيس مؤرخ في يوم الجمعة 25 ربيع الثاني عام 1378/نونبر 1958. وصية ضمن وثائق السيد الفتاوي رحمة الله عليه.

[13] تردد إليها عدد من الباحثين والعلماء من بينهم الدكتورة عائشة بنت الشاطيء والأستاذ أحمد التوفيق وكاتب هذه السطور، وغيرهم من الأساتذة والطلبة، فجزاه الله خيرا، وجعل ذلك في ميزان حسناته.

وقد صادف مرور ركبهم، قافلا من الحج، احتفال دولة مصر بالذكرى الثانية لثورة الضباط الأحرار. وفي أثناء ذلك شهد معرض الكتب الذي كان من بين مظاهر ذلك الاحتفال، وزار بعض الأماكن التي كان الحجاج المغاربة يترددون إليها منذ قرون، كجامع الأزهر والقرافة ومشهد الحسين...وهذه الرحلة أهم من الرحلتين التاليتين.

وكانت الرحلة الثانية في سنة 1964، وهي بعنوان"الرحلة الزكية المكية المدنية". وقد توجه إلى الديار المقدسة، في أثنائها، على متن الطائرة. ومن ثم، جاءت صغيرة الجرم، قليلة الفائدة، اللهم إلا ما كان من بعض الانطباعات التي سجلها الكاتب حول انبهاره بالتقنيات الحديثة، واختزال الزمن...

وكانت الرحلة الثالثة في سنة 1966، صحبه في أثنائها أخوه الحاج محمد الفتاوي، على متن القطار؛ وهي بعنوان"الفضل والإغاثة في الحجة الثالثة وزيارة المساجد الثلاثة". وقد عَبَرا في أثنائها بلدان أوربا المتوسطية، وزارا فلسطين ومسجدها الأقصى. وسجل الكاتب معلومات مهمة عن البلدان التي مر بها، تنبيء عن مستواه المعرفي، وإدراكه لمعطيات ذلك العصر، وبخاصة فيما يتصل بالبلدان العُربية قبل هزيمة يونيو 1967.

فضلا عن المصنفات المذكورة، خلف المؤلف جملة من المستندات؛ من بينها رسوم عدلية متنوعة، نتيجة خطة العدالة التي اشتغل بها مدة غير يسيرة، ورسائل متعددة، وعلى رأسها الإخوانيات، مما قد يفيد في معرفة جانب من لغة مثقفي ذلك الزمان، وأسلوب كتابتهم، ومشاغلهم الفكرية.

وهكذا عاش مؤلف كتاب "القول الجامع.." حياة حافلة، حيث تقلب في عدة وظائف، ورحل في سبيل الطلب والحج، وجمع الكتب وضرب بسهم في ميدان التأليف. وبالرغم عن ذلك، فلم ينصرف عن الحياة الاجتماعية، إذ تزوج سبع مرات، ولد له منها أحد عشر نفسا، استمر بقيد الحياة منهم سبعة: أربعة بنين وثلاث بنات.

المبحث الثاني: مع الكتاب

1 – موضوع الكتاب :

الكتاب كما هو واضح من عنوانه: "القول الجامع في تاريخ دمنات وما وقع فيها من الوقائع"؛ في التأريخ لمدينة دمنات وما عرفته من أحداث. وقد اعتبره الأستاذ محمد المنوني رحمه الله – يوم عُثر عليه ضمن مسابقة جائزة الحسن الثاني للمخطوطات والوثائق سنة 1971 – "فريدا في موضوعه، حيث لم يسبق أن خصت دمنات بتاريخ كالذي وضعه هذا المؤلف"[14]. وكان ذلك، قبل أن يكتشف الأستاذ أحمد التوفيق كتاب الغجدامي "التسلي عن الآفات بذكر الأحوال وما فات"[15]. فالكتاب يؤرخ لمدينة دمنات، منذ تأسيسها حتى السنين الأولى من عهد الاستقلال، وإن كان لا يستفيض في الحديث عن تاريخها إلا إبان قيادتي علي بن حدو وابنه الحاج الجيلالي وما بعدها، وصولا إلى صدر عهد الحماية.

2 – أهميته :

أرخ مؤلفنا لعهد حفل بالتحولات العميقة التي غيرت وجه المغرب عامة، إبان فترة سادتها ظاهرة استبداد القواد بخاصة. وبهذا جسّد النص ذلك الصراع الذي طفا على السطح، بين القواد ورعاياهم؛ والذي انتهى لصالح سلطات الحماية التي عملت على تكريسه؛ لأن جلهم أضحى بين أيديها، بمثابة الأداة الطيعة تحركها كما تشاء. وبناء على ما ذكر، فإن "القول الجامع..." يعد إسهاما جديدا في ميدان التأليف التاريخي، ويمنح صورة ناصعة عن العلائق المتوترة بين البادية والمدينة طوال العهد الممتد من منتصف القرن التاسع عشر، حتى فجر الاستقلال.

---

[14] محمد المنوني: معرض الوثائق والمخطوطات لنيل جائزة الحسن الثاني، دعوة الحق، العدد الثاني، ص. 170. صفر 1392/أبريل 1972. ٥

[15] ولنا عودة إلى هذا الموضوع بعد حين.

3 – مصادره :

اعتمد أحمد نجيب في تحرير مصنفه على كتاب"التسلي عن الآفات بذكر الأحوال وما فات"، الذي عاش مؤلفه، الطالب محمد بن أحمد أغجدام، تلك الحقبة كاملة، لأنه ولد، حسب الأستاذ التوفيق، في منتصف القرن التاسع عشر، وتوفي في 23 يوليوز سنة 1955[16]. كما أفاد أيضا مما عثر عليه من معلومات ضمن الأوراق التي سودها القائد عمر المزواري، بعنوان"الألفات إلى تاريخ دمنات"[17].

وإذا كان الحاج أحمد نجيب قد سلخ حيزا كبيرا من الغجدامي والمزواري، فإنه لم يتردد في اختصار كثير من الفقرات، وإضافة بعض التفاصيل، وبخاصة فيما له اتصال بقضايا الماء، وتراجم بيوتات دمنات وأعيانها من نظار وقضاة وعدول؛ فضلا عما انفرد به من أخبار قبائل فطواكة وهنتيفة والسراغنة وزمران، مما عاشه هو من أحداث، بعد كل من الغجدامي والمزواري. وحتى إذا سلمنا بأنه مجرد ناقل، فإن له الفضل في تمكين الباحثين من شذرات مهمة من مؤلَّف القائد عمر المزواري، الذي لا يزال معدودا في حيز المفقود.

وكيف برجل يعرف تاريخ مدينة دمنات كما يعرف أبناءه؟ وقد تعرف عن قرب على مكونات ذلك التاريخ، من المجال والرجال، إلى الوقائع والأفعال. ويكفي أن تكون المادة التي نقلها عمن سبقوه قد صدرت عن مُؤلِّفَيْن شاركا، في كثير من اللحظات، في صنع تلك الوقائع والأحداث.

4 – ظرفية تأليف القول الجامع :

لا نحتاج إلى كثير من القرائن للدلالة على أن الحاج أحمد نجيب قد شرع في تصنيف كتابه بعد أن اطلع على مؤلفي الغجدامي وعمر

---

[16] إينولتان، م. س. ص. 31.

[17] توفي القائد عمر بن المدني المزواري سنة 1957، أحمد التوفيق: الاكَلاوي، عمر: معلمة المغرب، 622/2 ومصادره.

الأكّلاي؛ فجاء مؤلفه مستوفيا لمضامينهما، ومضيفا لهما ما تأتى له الاطلاع عليه من مستندات، وما عاشه من تجارب في أثناء حياته. ومن ثم، يبدو أنه شرع في تسويد مؤلفه بعد وفاة الحاج عمر المزواري سنة 1957[18]، حيث ترحم عليه عدة مرات[19]. كما يتأكد لدينا أنه بدأ التحرير، بعد ذلك التاريخ من ذكره ل:"محمد الخامس، الإمام الحالي، وصنويه العزيزين"[20]. ومعلوم أن الملك محمد بن يوسف لم يشع لقبه ب"الخامس" إلا بعد الإعلان عن استقلال المغرب. وهكذا تدل القرينتان المذكورتان على أن بدء الكتابة كان بعد سنة 1957.

ولما جف قلمه وطوى آخر صحيفة من مصنفه، أرخ لذلك بدقة فقال:"انتهى...يوم السبت ربيع الثاني 1391/ 19 يونيو 1971"..."والآن في نهاية العقد الأخير من القرن الرابع عشر"[21]. لكن لماذا أغفل الإشارة، في "القول الجامع.."، إلى رحلتيه إلى الحج سنتي 1964 و1966؟ فهل كان قد أتم تسويد كتابه قبل هذا التاريخ، ولم يبق له إلا تبييضه سنة 1971؟ يظل السؤالان مطروحين ما دمنا لم نطلع بدقة على نصي الرحلتين.

5 – طريقة التأليف :

يحظى هذا النص بصدقية لا تتوافر دائما في كثير من النصوص، إذ تطغى عليه العفوية في التعبير، والتلقائية في السرد، الأمر الذي يبدو منسجما مع تلك البيئة البسيطة التي احتضنته. وهذا ما قد يجعل قارئه يتحسس تاريخا مفعما بالحياة، مختلفا عن النصوص الأخبارية المتداولة. ولسنا نشك في صدق أحمد نجيب، حين يكتب تاريخ مدينة دمنات، لا يحفزه إلا عشق تلك المدينة، ولا ينتظر حظوة لدى حاكم، أو التقرب لشخصية بارزة يريد لديها نوالا.

---

[18] م. س. ص. 8.

[19] م. س. ص. 13.

[20] م. س. ص. 79.

[21] م. س. ص. 13.

وكتاب نجيب الدمناتي نموذج للكتابة التقليدية التي كانت سائدة في البادية المغربية، إلى عهد قريب، من حيث المنهاج والموضوع. وكاتبه ينتمي إلى تلك الشريحة المتفقهة التي كانت تمثل الاستثناء، لأنها استعملت القلم للتعبير عن مشاكل محيطها وهمومه، في بيئة غلب عليها التقليد الشفهي، حيث ظلت الأدبيات والوقائع والأعراف شفهية، لا تتداولها إلا ذاكرة الآحاد.

6 - لغة الكتاب وأسلوبه :

تمت صياغة كتاب "القول الجامع" بأسلوب عفوي، بعيد عن التكلف، مهلهل أحيانا، كما تنبيء به البيئة التي ترعرع فيها مؤلفه. وجاءت لغته وعاء لكثير من الألفاظ المتداولة في اللسان العامي المغربي، مما جمع بين العربية والأمازيغية، وما داخل العامية من اللغات الأوربية، كالفرنسية والإسبانية.

فمن اللسان الدارج نذكر: حلُّوا (بمعنى فتحوا) والكَور والصوكَة والسطاشية والعْماره والقُنْتْ والنواضر[22]؛ ومن الألفاظ ذات الأصول الأمازيغية، التي بدا عليها تأثير اللسان العامي واضحا: أرحبي وأحفير وأجموع والمادر والقرشان...[23]. ومن الدخيل من اللغات الأوربية: البَرْكَادِ والقشلة والكَبْرانات والفسيانات والبيرو والمارشي والزطاور[24]...

ولعل ذلك مما ترتب عن العجمة التي لم يستطع كثير من أدباء الأمازيغ أن يتخلصوا منها، بالرغم عن تبريزهم في لغة الضاد، بله مؤلفنا الذي يعترف بذلك، في تواضع قائلا:"وإنني أسجل على نفسي أنني إنما نويت جمع شتات هذه الفوائد، وأنني أكتب بلسان وقلم هما من العجمة البربرية أقرب للفصحى، وأكتب مع احتراز بأن بعض العبارات هنا في غاية الركاكة والتكرار، وإنما المقصود إيصال الفوائد وتسجيلها وتاريخها ليس إلا"[25].

---

[22] م. س. ص. 21 ،37، 66، 78، 102.
[23] م. س. ص. 19،22،69.
[24] م. س. ص. 16، 25، 33، 40، 45، 49.
[25] م. س. 122.

وكثيرا ما درج مؤلفنا على استعمال لغة "أكلوني البراغيث"، مثل: "واعتصموا هؤلاء هسكورة بمعاقلهم"[26]، و"لما وصل إلى علم الجنود الفرنسيين خبر ما عولوا عليه السياب"، و"النصارى خرجوا علينا من البحر"، و"أن أيت بلال فرحوا بسجنهما"، و"كما تغلبوا فطواكه على تازگيت"... علاوة على ما شاب أسلوبه من تعبير درج عليه الناس في اللسان العامي، مثل:"حتى أنسى لهم ما سواه من الفتن.."، و"أضْبَطَ الأمور المخزنية.."، و"لم يبال إليه أحد"، و"الكثير منهم يترك فرسه وينجو بروحه"، و"ضربه برصاصة في رأسه"[27]؛ مما كان شائعا وقتئذ لدى كثير من متفقهة البادية المغربية، الذين ظلوا يفكرون بالعامي على الرغم من أنهم كانوا يكتبون بالفصيح.

وعلى الرغم من ذلك كله، فإن قاريء "القول الجامع" سوف يجد متعة خاصة، لأن مؤلفه قام بتصنيفه تخليدا لتاريخ مدينة دمنات التي شغف بحبها، واستنادا إلى ما عثر عليه من فوائد حواها كل من كتابي الغجدامي وعمر الأگلاوي، وما نقل من روايات عن بعض عصرييه، وما احتجن، هو نفسه، من مستندات ووثائق، لا يزال بعض أقربائه يحتفظون بها.

المبحث الثالث: مدى أصالة نجيب الدمناتي في "القول الجامع..."

1 – مع كتاب "التسلي عن الآفات بذكر الأحوال وما فات":

أشرت قبلُ إلى أن مُؤلِفنا اعتمد في تحرير مصنفه على مصدرين رئيسين؛ الأول هو "التسلي..."الذي ألفه محمد الغجدامي. وقد كان هذا الرجل أحد فقهاء قبيلة غجدامة، التي تمتد مواطنها على السفح الشمالي للأطلس الكبير الأوسط، تحدها من الجنوب والغرب قبيلة گلاوة، ومن الشمال والشرق اتحادية ولتانه. ومما أتاح له معاينة كثير من الأحداث

---

[26] م. س. ص. 8، 31، 37، 120،

[27] م. س. ص. 19–22 و34.

والوقائع، التي جرت يومئذ، أنه عمل كاتبا لدى كل من القائدين الأكَلاويين المدني وأخيه التهامي[28]. يقول أحمد نجيب، في سياق عرضه للمراجع التي اعتمدها في تأليفه: "وما كتبه في تاريخه العلامة الكاتب الشاهد بالعين، سيدي محمد الغجدامي"[29]. ثم يستحضر قوله، وكأنه يؤكد ما قيل عنه فيما بعد: "سمعت بأذني قائلا يقول..". ومن ثم، كان مؤلف "القول الجامع" يرجح باستمرار ما ورد عند الغجدامي، فيقول مثلا:"وعبارة الغجدامي أبْيَنُ وأصْرَحُ..."، في سياق المقارنة بين ما جاء عنده وعند القائد عمر المزواري[30]. وبهذه الثقة التي وقرت في قلبه عن كتاب "التسلي..."، وبإعجاب منقطع النظير، انساق أحمد نجيب يحذو حذوه، بل سلخ منه أحيانا فقرات كاملة، حتى وقع في التكرار ذاته الذي سقط فيه الغجدامي. فكان يقول مثلا:"قال الغجدامي الذي أنقل عنه". وليميز بين المنقول وبين ما أتى به من عنديته، يقول:"قال كاتبه عفا الله عنه"[31].

ولما تعقبتُه في هذا بالمقابلة، وجدته قد اتبعه حذو القذة بالقذة، وبخاصة فيما يتعلق بالوقائع المتصلة بانتفاض ولتانه ونتائجه، والاحتلال الفرنسي لدمنات وما جاورها من الجهات، وردود فعل المغاربة. وأشير هنا إلى أنه حذا حذو الكاتبين في موقفهما لما تناولا بعض القضايا الرئيسة في النص، مما سوف أعود إليه في إبانه. والمرجح عندي أن نسخة الغجدامي التي رجع إليها هي ذاتها الموجودة اليوم عند ورثته، والتي اطلعت على نسخة مصورة منها، مبتورة الأول. وهذا ما ذكره حين قال: "كما عثرت على تأليف مبتور، من هذا القبيل، للفقيه العلامة الأستاذ في القراءات السبع، سيدي محمد... الغجدامي الدمناتي، استنسخه منه القائد المذكور، رحمهما الله"[32].

---

[28] م. س. ص. 44.

[29] م. س. ص. 122.

[30] م. س. ص. 46.

[31] م. س. ص. 79.

[32] م. س. ن.

2 – الألفات إلى تاريخ دمنات :

ومصدره الثاني هو مصنف "الألِفات إلى تاريخ دمنات"[33]، الذي وضعه الحاج عمر الأگلاوي المزواري، وهو من بين أدباء البيت المزواري النابهين. وقد وصف مؤلفنا مجلسه بأنه كان "مجلس علم ومذاكرة في شتى العلوم، من النحو والفقه والحديث، وغير ذلك"[34]. وكان القائد المذكور يمتلك خزانة "جمعت الشيء الكثير من نفائس الكتب، وذخائر العلوم، ما بين مخطوط ومطبوع"؛ يغلب على الظن أنه ورثها عن والده الذي كانت الكتب من جملة الهدايا التي تقدم إليه. وقد قدّر الله لمؤلفنا أن يكون "من بين العدول الذين تصفحوا خزانة كتبه" بعد وفاته[35]. فذكر أن كتب خزانة عمر المزواري قد بيعت بطريقة الدلالة بجوار الجامع اليوسفي؛ فتفرقت شذر مدر[36].

وعلى الرغم من أنه ظل يبحث عن مصنف ذلك القائد "بين الورثة بالنفس والنفيس"؛ فلم يعثر على ضالته. وحتى لما اتصل من أجل ذلك بأقرب أولاده، وكان ذلك الولد من الملازمين لوالده، لم يلو على شيء. قال: "فصار يعدني ويمنيني، وفي الأخير جمع لي أوراقا مبعثرة؛ ولما طالعتها تبين أنها مسودة لبعض التآليف "[كذا]. لكنه لما اطلع على بعض ما كان القائد سوده وبيضه[37]، قال:"فاستعظمت ذلك التاريخ حينما ألفيته تعرض فيه حتى لبعض القبائل المجاورة، مثل هنتيفة والسراغنة وفطواكة، بل حتى غجدامة ومسفيوة وأيت عتاب". وهذا ما زاده إصرارا على مواصلة البحث والتنقيب، لكنه أسف كثيرا

---

[33] إذا كان"الإلْفات..."كما يقرؤه اليوم أغلب الناس فلعله خطأ، ولذلك أصررنا على القول إنها"الألِفات"، جمع ألف، أي الأوليات، أو المقدمات، أو المهدات، أو البدايات... فيما يتصل بالعلوم...

[34] م. س. ص. 8.

[35] م. س. ص. 6.

[36] م. س. ص. 7.

[37] لما نستعمل اللفظتين المذكورتين فإن ذلك مقصود، لأن أحمد نجيب ينص أحيانا على التسويد، وأحيانا أخرى على التبييض. ونحن لا نشك في أنه استعملهما جزافا، لأن التمييز بينهما معروف لدى أهل التأليف.

لأنه رجع بخفي حنين، ولم يفز إلا بالأسى والأسف، وتلك الورقات المبعثرة، التي وجد نفسه مجبرا على الرجوع إليها خوف ضياعها، لأنها كانت بعضا مما وضعه المؤلف. وهذا ما أجبره على التشبث بها بالرغم عن تناثرها. فلم يسعه إلا أن يتتبع بالنقل ما وجد من تلك الأوراق. يقول مثلا: "ثم وجدت في ورقة أخرى"[38]، ويعلق عليها: "وليست من خط القائد، أظن أنها كتبت إليه من بعض طلبة السراغنة". أي أنه كان يعرف جيدا خط القائد عمر. لذلك ظل متعلقا بأمل العثور على مصنفه؛ فلم يكف عن التضرع "إلى الله ليعثر عليه"[39]، لأنه حافل بالفوائد، وبخاصة ما يتصل بعهد الحماية. فقد ترجم فيه القائد عمر كل المراقبين المدنيين الذين تداولوا حكم مدينة دمنات، كما ترجم بيوتاتها، وعرف بمختلف القبائل المحيطة بها.

ولما يئس مؤلفنا من العثور على ذلك المصنف، خلص إلى القول: "إن أولاد القائد عمر المزواري لعلهم أخفوا ما كتب والدهم مخافة مغبته بعد الاستقلال"، بعد أن قال: "أظن شخصيا، ولا أقول إن بعض الظن إثم، إن تاريخ والدهم مليء بالكتابة عن الاستعماريين ومصالحهم، وكان هذا سببا في إخفائه"[40]. وهذا مفهوم طبعا، لأن كثيرا من الناس يومئذ قد لحقهم الضرر لأجل الريبة فقط، فكيف بمن كان لهم ضلوع في تثبيت أركان الحماية الفرنسية، مثل گلاوة؟

3 – وثائق ومستندات خاصة:

كان المصدر الثالث، الذي أفاد منه مؤلفنا، ما توافر له من وثائق ومستندات نقب عنها بطريقة شخصية[41]؛ فضلا عن تجاربه ومشاهداته، وقد سبق الإلماع إلى أنه قام برحلات داخلية وخارجية، لا شك في أنه نال منها معارف ميدانية. كما اشتغل بالتدريس، وتصدر

---

[38] م. س. ص. 120.

[39] م. س. 73 و122.

[40] م. س. ص. 111.

[41] م. س. ن.

للإمامة والخطابة، واستكتبه القائد عمر كذلك، وترتب لخطة العدالة، وبعدها ولي القضاء. فكان تقلبه في تلك الخطط والوظائف سببا خوله حيازة وثائق ومستندات[42] وكتب. كما كان ذلك سببا في اتصاله ببعض الأعلام الذين روى عنهم وقائع معينة. من ذلك مثلا قوله:"قال بلديه الطالب السيد محمد بن محمد أعزي الكرولي، حسبما نقلته من خطه رحمه الله"[43]. وهذا يفضي بنا إلى الحديث عن منهجه في التأليف. فكان لما ينقل عن الغجدامي، يعترف قائلا:"قال الغجدامي الذي أنقل عنه"[44]؛ أو"وما كتبه في تاريخه العلامة الكاتب الشاهد بالعين، سيدي محمد الغجدامي". وحين ينقل عن القائد عمر المزواري، يقول مثلا:"هكذا كتب القائد، وهو أدرى"[45]، و"أنا أتبع ما وجدته خطه بقلمه في أوراق مسودته"[46].

ولابد من التأكيد على أنه اقتفى أثر الغجدامي والمزواري حتى فيما أورداه استطرادا. بل كثيرا ما تستقيم لغته حين ينقل عنهما، مع ما نلمسه من اختلاف بين أسلوبيهما، حتى في نقوله[47].

4 – حضور ذات نجيب الدمناتي في مؤلفاته :

ومع ذلك كله، فلم يكن مؤلفنا خالي الوفاض تماما، كما نلمسه من عدة قرائن. فبالرغم عن اعترافه بقصور باعه في ميدان التأليف، فقد أضاف معلومات لا يستهان بها. يذكر مثلا، "أن العلماء المذكورين، فمنهم من عرفته حقا، ومنهم سماعا، ومنهم من لا أعرفه.."[48]. أولئك

---

[42] أثبت بعضها ضمن القول الجامع، ولاسيما أثناء حديثه عن عدول دمنات وقضاتها، ينظر على سبيل المثال، ص. 85 – 90.

[43] م. س. ص. 20.

[44] م. س. ص. 79.

[45] م. س. ص. 97.

[46] م. س. ص. 112.

[47] م. س. ص. 101 و112 مثلا.

[48] م. س. ص. 87.

العلماء الذين كانوا بمثابة مرجع بالنسبة إليه، يستشيرهم في بعض ما استوقفه في أثناء تصنيفه. من ذلك مثلا، أنه استشار بعضهم في استعمال لفظة البغاة التي كان البعض ينعت بها الخارجين عن السلطة، فأشار عليه باستعمال لفظة السياب، لأنها أهون من لفظة"البغاة"[49]. ومعلوم أن مرجع العلماء في ذلك هو الشرع الحكيم[50]. وليدفع عنه تبعة الخطأ أو الوهم، يقول:"فإنني أظن ولا أتحقق جيدا"[51]. ولا يسوق إلا ما صح عنده، وتأكّد لديه قطعا من الثقات، فيقول: "وأما [فلان] فقد أدركته وعرفته جيدا، وكانت بينه وبين والدي محبة صحبة وأخوة في الله"[52]؛ أو يضيف:"ثم نقلت من خط الفقيه المبرز السيد قاسم بن الفقيه الحاج مبارك الوودنوستي، وهو عدل"[53].

ولم يخلُ "القول الجامع" من نقد بعض مظاهر الانحراف التي استشرت في ذلك الزمان، كإقبال العدول المتأخرين على احتجان المال، دون مراعاة الشرع، وإهمال العلم، وعدم الالتفات إلى صيانة أسوار المدينة[54]. وقد سبقت الإشارة إلى أنه انتقد كذلك التعصب للنسب الذي كان بعض عصرييه لا يزالون متمسكين به. كما تطرق لقضايا الماء، وما يطرح من مشاكل يعاني منها أهل دمنات[55]؛ ولم يكن - في نقوله - ينى عن التعقيب بحذر؛ يقول مثلا: "هكذا كتب القائد، وهو أدرى، أما أنا فأقول..."[56]؛ بل لم يتردد عن تصحيح ما استيقن من خطئه. قال مرة:"وكتب موضع الضاد دالا"[57].

---

[49] وبناء على تلك الاستشارة فضل استعمال "السيبة"و"السياب"، بدل"البغي"والبغاة".

[50] م. س. ص. 31 و65.

[51] م. س. ص. 97.

[52] م. س. ن.

[53] م. س. ص. 92.

[54] م. س. ص. 91 و100.

[55] م. س. ص. 107.

[56] م. س. ص. 97.

[57] م. س. ص. 98.

وبالرغم عن كل ذلك، فالمؤلف الحاج أحمد نجيب، لم يَرَ لنفسه فضلا، سوى أنه جمع فوائد خشي أن تضيع، كما ضاع مؤلف القائد عمر وخزانة كتبه. لذلك يقول مثلا:"قال جامعه وكاتبه أحمد نجيب"[58].ومن ثم، سمى مؤلفه أحيانا "الجامع"؛ أي أنه مجرد جامع لفوائد[59]. كما تكررت كلمة فائدة عدة مرات فيما كتب[60].

وبناء على ما ذكر، نستطيع القول، بالرغم عن اعتراف مؤلفنا بقصور باعه وقلة بضاعته[61]، وفضلا عما نقل عن الغجدامي والمزواري، أنه قد أفاد كثيرا من خزانة كتبه، وما تحصل لديه من مستندات، وتجارب شخصية. وقد سبقت الإشارة إلى أنه ترجم كل من أدركه من القضاة، وعددهم عشرة، والعدول، وعددهم ستة وعشرون، والنظار[62]. وكان قد عقد العزم على التأريخ لطائفة من عدول فطواكة، ولكن العوائق حالت دون ذلك. قال بصدد ذلك: "ولعلني أخصص لهم وقتا إذا تبدلت الأحوال القضائية، فأذكر خطوطهم وأشكالهم كذلك..."[63] ، مما يدل على أنه لم يستنفذ كل ما كان يملك من مستندات. وأكاد أجزم أن الحاج نجيب يعد حجة في معرفة بعض القضايا التي ظلت تعاني منها مدينة دمنات طوال تاريخها. وسوف أعود إلى ذلك عند الحديث عن مضمون النص.

ومهما يكن، فهذه كلها دلائل على أنه قد أدلى بدلوه في ميدان التأليف، مضيفا بعض الجزئيات التي سيظل كتابه المرجع الوحيد لمعرفتها. ومن ثم فقد حق له أن يختتم مؤلفه قائلا: "يقول جامعه وجامع شتاته، إلى هنا انتهى بنا القلم في جمع ما عثرنا عليه"[64]، ليجمل مصادره في قوله:"فهذه الأوراق، وهذا المؤلف هما مرجعي ومستندي،

---

[58] م. س. ص. 105.

[59] م. س. ص. 120.

[60] م. س. ص. 84 و91 و120 على سبيل المثال.

[61] م. س. ص. 122.

[62] م. س. ص. 100.

[63] م. س. ن.

[64] م. س. ص. 122.

وزدت ما كان محققا عندي بوثائقه"[65]. أي أنه، أضاف معلومات استقاها مما تحفل به خزانته من مستندات ووثائق، كالظهائر ورسوم الرهن والإراثة والقراض والكراء والنكاح والطلاق، والتي أثبت بعضها بأصوله، ضمن كتابه هذا.

المبحث الرابع: مع قضايا القول الجامع

1. دمنات: من البادية إلى الحاضرة :

استهل المؤلف مصنفه بالتعريف بمدينة دمنات، منذ بدء تاريخها، حيث كرر ما جاء عند سابقيه، من أنها من تأسيس موسى بن نصير سنة 80 للهجرة. لكنه منح تواريخ غريبة عن تأسيس كل من مراكش وفاس، بعكس ما هو شائع في المصادر المعروفة[66]. ومن الأخبار الغريبة التي نقرؤها في "القول الجامع"، ما نسبه لعلي بن سليمان البوجمعوي، أن دمنات من تأسيس رجل هندي. وهذا المؤسس هو الذي جلب إليها شجرة الزيتون المشهورة بالمنطقة. وقد ظلت أسوارها وأبراجها قائمة العين والأثر إلى زمن قريب. ويشير بالمناسبة إلى أن سلطات الحماية قد حرصت على الحفاظ على تلك الآثار وأولتها عناية كبيرة، على عكس ما حدث فيما بعد، حيث تعرضت للإهمال حتى ضاعت، أو تكاد، في زمانه[67]. وتنقسم دمنات، حسبما يرى إلى قسمين متمايزين: القصبة وأرحبي[68].

فأما القصبة فتقع شرقي المدينة، وهي مركز المخزن المحلي، تتوسطها دار العامل، كما يقطن بها أعوانه وبعض أصهاره. وأما أرحبي فيمتد في الجهة الغربية، وهو أوسع ـ أو أرحب ـ من القصبة، ويتكون بدوره من قسمين:

---

[65] م. س. ن.

[66] م. س. ص. 12.

[67] م. س. ص. 13.

[68] ينظر الرسم التقريبي في نهاية الكتاب.

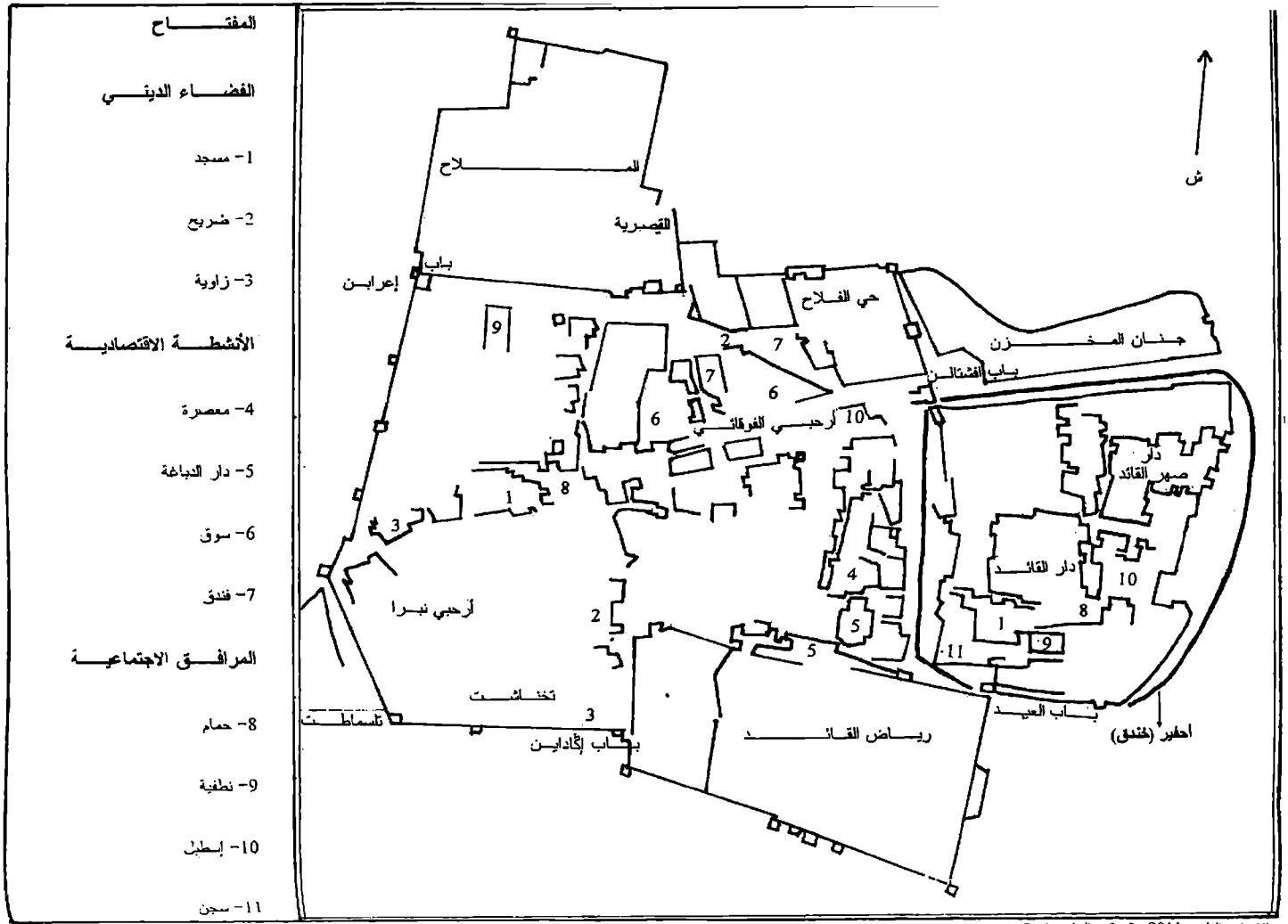

الإنجاز: الطوبي 2011 - المجتمع المغربي / 17#

ـ أيت يحيى الداخليون (نوكنسو) ويدعى الواحد منهم "السوري"؛ أي القاطن داخل السور، لأنه وقع تسويره أيضا، ويقع غربي القصبة مباشرة، وضمنه يوجد الملاح القديم الذي صار يدعى حي الفلاح. ويشترك مع القصبة في مجاورة رياض القائد، حيث يفضي إليه باب الرياض، بينما يفضي باب العيد إلى القصبة.

ـ أيت يحيى الخارجيون (ئبَرّا)؛ أي الذين أتوا من الأطراف، كتِغَرْمين وشعبة الكرم وإغير، ويدعى الواحد منهم "اليحياوي". ويسمى هذا القسم أيضا أرحبي، ويمتد غربي المدينة؛ وبعد تسويره أصبح الدخول إليه يتم عبر أبواب أشهرها باب إعرابن في الشمال الغربي، المجاور للملاح الجديد، وباب إكّداين الذي يفضي إلى حي تخناشت، وهو من أكبر أحيائه[69]. ويتوافر بكل قسم من القسمين مسجد جامع ومدرسة وحمامات، وسائر المرافق.

وقد كان كل من"السوريين" و"اليحياويين"، في القديم، معتزين بنسبهم غاية الاعتزاز؛ كل طرف حريص على تميزه عن الطرف الآخر، بالرغم عن الاختلاط الذي أوجبته المصاهرات والمعاملات وغيرها. إلا أن ذلك التمايز اختفى فيما بعد، وهو أمر قد استهجنه المؤلف، ف"اختلط الحابل بالنابل، واستوى الماء والخشبة"، على حد تعبيره[70].

وبالرغم عن طول تاريخ دمنات، فإن المؤلف لم يتحدث عن الفترات السابقة للعصر العلوي، حيث اقتصر، في"ذكر من زار دمنات من الملوك" على العلويين فقط، فبسط القول عن زيارة السلطان المولى الحسن، وما قام به لصالح هذه المدينة.

ـ أولا: لقد رفعها إلى مصاف المدن، وأصدر ظهيرا مؤرخا في خامس عشر رمضان عام 1290، يقضي بتوقير سكانها واحترامهم، وبالتالي إعفائهم من سائر الوظائف والكلف المرتبة على سكان البوادي، باستثناء الزكاة والعشر[71].

---

[69] أحمد التوفيق: دمنات، معلمة المغرب 4080/12 ومصادره.

[70] م. س. ص. 13 ــ 14.

[71] القول الجامع .. م. س. ص. 47.

ـ ثانيا: قدم إليها عام 1887/1304، في أثناء الحركة التي التبست أهدافها على معظم الأخباريين[72]، ليحسم أمر النزاع الواقع بين أيت ماجطن وهنتيفة حول بلدة تنانت، حين عمد هنتيفة إلى انتزاع تنانت بالقوة من أيت ماجطن، فسيطروا عليها، مستغلين ظروف الاضطراب التي عرفتها تلك الجهة. ولما نزل السلطان المذكور بدمنات تقدم إليه أعيان القبيلة الأخيرة متظلمين مما وقع، فأصدر ظهيرا أقطع بمقتضاه تلك البلدة لأيت ماجطن. لكن هنتيفة انتهزوا فرصة وفاة السلطان عام 1894/1311 وانتفاض إينولتان، للانقضاض على تنانت. وقد استعانوا هذه المرة، بكل من أيت عتاب وأيت بوزيد وأيت عطه، فكان الظفر فيها حليف هنتيفة الذين احتلوا تنانت من جديد[73].

ومما يذكر كذلك، في السياق ذاته، أن أعيان دمنات قد اشتكوا من الضرر الذي كان اليهود يلحقونه بماء الساقية، حيث كانت المياه التي منها يشربون ويتوضؤون تتعرض للتلوث من قبل اليهود، لأن الملاح يقع في عالية الساقية. وبعد أن اطلع السلطان على الساقية المذكورة، وتأكد لديه الضرر، قرر نقل اليهود إلى ملاح جديد، بالمحل المعروف بأيت عمرو[74]، وأصدر ظهيرا ليصبح الانتقال بموجب أمر قانوني[75].

2. حضور اليهود في دمنات :

يستطرد المؤلف هنا ليتحدث عن يهود دمنات؛ فيذكر أنهم قد استوطنوها منذ القديم، وأن عددهم يناهز ألفا وثمانمائة أسرة؛ أغلبهم يمتهنون التجارة، ويحترفون كل الصنائع. ومن ثم فقد حرصوا على جمع المال بمختلف الوسائل، حتى ظهر من بينهم أثرياء. كما لوح إلى ما كانوا يقومون به من مناورات ودسائس ضد قائد دمنات، ولاسيما

---

[72] ابن زيدان (عبد الرحمن): إتحاف أعلام الناس بجمال أخبار حاضرة مكناس، 248/2. وقد اختزلها مؤلفه في معاقبة هنتيفة بسبب رفضهم للقائد عبد الله الزناكي.

[73] م. س. ص. 43.

[74] م. س. ص. 44.

[75] م. س. ص. 45 ـ 46.

من كان منهم متلبسا بالحماية القنصلية، وكيف استطاع الحاج الجيلالي أن يرد لهم الصاع صاعين، ويخضد شوكتهم[76]. ولم يتوقف الصراع بينهم وبين القائد المذكور إلا بعد أن عين لهم السلطان أحمد المنبهي حاكما خاصا بهم، ينظر في قضاياهم المتصلة بالأمور العامة. أما أحوالهم الشخصية، فكان كبيرهم، أي الحزان، هو الذي يتولى الفصل فيها. ووصف المؤلف أيضا عاداتهم في أفراحهم وأتراحهم، وبعض حيلهم، ومظاهر تضامنهم في أثناء ما كان يصيبهم من شدائد، وعلائقهم مع المسلمين.

3. دمنات حاضرة إينولتان (ولتانه) :

ذكر أحمد نجيب، في سياق التراتب الاجتماعي في دمنات، أن القصبة كانت هي مقر العامل وأعوانه، بينما كان أرحبي بمثابة رعية لها، الشيء الذي ترتب عنه صراع دائم بين الطائفتين، استمر حتى زمن المؤلف، وهو ما أشار إليه متأسفا:"وإلى غاية كتابة هذه السطور، لا يزال بعض الكهول يوجد فيه هذه العصبية المصيبة"[77]. ولعل هوة الصراع لم تزدد عمقا إلا بعد تأسيس سور دمنات من لدن القائد علي أوُحدو سنة 1870/1287[78]. من المعلوم أن تعيين ذلك القائد على دمنات عام 1848/1264 كان إيذانا ببدء عهد جديد، لعل أبرز سماته على الصعيد الجهوي هو استقلال ولتانه عامة عن قيادة السراغنة، واستفحال ظاهرة استبداد القواد على الرعايا، وبخاصة بعد هزيمة الجيش المغربي في حرب تطوان، وما ترتب عنها من غرامة مالية ثقيلة درأت المخزن إلى إطلاق أيدي القواد في الرعايا[79]. ولعل ما وقع للقائد علي أوُحدو مع المدعو باذّو الهنتيفي كان له أكثر من دلالة لِما

---

[76] م. س. ص. 49.

[77] م. س. ص. 13.

[78] م. س. ص. 14.

[79] ج. عياش: الأزمة المالية بالمغرب بعد الغزو الإسباني سنة 1860، مطبوعات معهد الدروس العليا المغربية. ص. 22 وما بعدها.

شهدته دمنات من توتر بين القواد والرعية طوال عقود من الزمن. يحكي أحمد نجيب أن بادّو المذكور لما قابل القائد عليا، قال له:"هل جئت لتحكم علينا أيها النفايحي، وجمع له هذا الكلام مع طرشه"[80]. وهذا الفعل الذي يجمع بين الاستهزاء من ممثل مخزني واحتقاره، وهو معين بظهير سلطاني، لا يعبر إلا عن قناعة مفعمة بالرفض المطلق. وهو ما كشفت عنه الأيام فيما بعد، حيث صار تَمَنُّع أهل دمنات على المخزن أمرا معتادا، تمهيدا لانتفاضهم، أو"سيبتهم"[81] حسب المؤلف.

لكن المخزن بدل أن يقلص مجال تلك القيادة، التي شملت مع علي أوُ حدو ولتانه وفطواكه وغجدامه، لإحكام القبضة عليها، عمد إلى توسيعه مع خلفه، ابنه الجيلالي بن علي؛ حين ضم إلى نفوذه تُگانه وأيت بوگماز[82]. بل لقد امتد ذلك النفوذ، في الواقع، إلى إمغران وتدغة ودادس.

4. نماذج من الاستبداد قابلها الانتفاض :

نقل المؤلف وصفا معبرا عن حال القواد المغاربة إبان الخمسة عقود التي سبقت فرض الحماية، ضاربا المثل بقواد دمنات، ولاسيما أبرزهم الحاج الجيلالي بن علي الدمناتي، الذي عاش كل مظاهر البذخ والترف في إيالته[83]. فكان يُستقبَل، في أثناء دخوله إلى قصره، وخروجه منه، على طريقة الأبهة السلطانية. يقول المؤلف: "كان في خاصة نفسه وشؤون داره مثل ما يكون دار الملك، من الخدم والغلمان. فقد كان لديه ولدان صغار يقومون وقوفا عند دخوله، ويؤدون له التحية عند قربه من العيال، قائلين بصوت واحد: الله يبارك عمر سيدي. وبعدهم بنات خديمات [كذا] صغيرات كذلك. فيسمعهم الرجال من خارج، فيقفون صفوفا، كل مائة بقائدها، يؤدون التحية: الله يبارك عمر

---

[80] القول الجامع... م. س. ص. 15.

[81] م. س. ص. 17.

[82] م. س. ن.

[83] وقد ترجمناه بهامش في المتن.

سيدي؛ وله عدة من المشاورين [كذا]"[84]. أي أنه اتخذ مراسيم السلاطين، فكثَّرَ الحريم ورجال البلاط، واصطنع المعاونين والخدام. كما اتخذ سجنا داخل "رياضه". وإذا كنا نفتقر إلى بيانات دقيقة حول شطط القائد الجيلالي الدمناتي في استعمال سلطته، وعسفه على محكوميه فيما يتصل بابتزاز المال، فإن لدينا مؤشرات كثيرة للتدليل على كبر ثروته. تلك المؤشرات التي يمكن أن نستخلصها مما نهبه المنتفضون من مقر سكناه، في أثناء قيامهم ضده، ومن خلال أعمال السخرة التي اعتاد فرضها على رعاياه طوال عهده.

من أجل ذلك، فلا غرابة أن ينتفض عليه رعاياه، وبخاصة لما أصبحت الفرصة سانحة، مع وفاة السلطان مولاي الحسن سنة 1894/1311، وأعلنت عدة قبائل عصيانها[85].

انطلقت شرارة انتفاض إينولتان من قبيلة فطواكه، حين كان قائد الإيالة الجيلالي الدمناتي غائبا، ضمن الوفد الذي حضر تجديد البيعة للسلطان المولى عبد العزيز بمدينة فاس. فقد صادف ذلك موسم الحصاد، وسبقت الإشارة إلى أن الرعايا كانوا ينجزون كل الأشغال لصالح القواد في سياق السخرة. ولعل من سوء طالع الدمناتي أن تبدأ عملية الحصاد من الأراضي التي كان يملكها بقبيلة فطواكه، وأن يُقْدِمَ الواقف عليها على ضرب أحد"الحَصَّادَه". فكان ذلك الحدث إيذانا ببدء العصيان، ولاسيما حين أعلن الفطواكي المضروب "الويل والتبور" لكل القبيلة إن لم تنتقم له. هنالك رفض الحصادون مواصلة الحصاد، وألقوا مناجلهم إلى الأرض. فأُعلنت حال الاستنفار في القبيلة التي لم تتردد عن عزل شيخ المخزن، لتعين شيخها الذي ترتضيه، بعد أن نادت بمخالفة القائد الجيلالي[86]. بعد ذلك انتقل الانتفاض إلى ربع

---

[84] المقصود المشاورين أو أصحاب المشور، وهم بمثابة شرطة القصر، ولعل ما يقابلهم اليوم هم الحرس الملكي. م. س. ص. 21.

[85] لا بد من الإشارة إلى أن إينولتان قد انتفضوا ضد المخزن خمس مرات، تعرضت دمنات في أثنائها جميعا إلى النهب، م. س. 18ـ19.

[86] م. س. ص. 54.

جطيوه، من ولتانه، ليعم كل القبائل المجاورة لمدينة دمنات. وأول ما اتفق عليه المنتفضون هو أن تمنع القبائل قواد المخزن من عبور أراضيها[87].

في تلك الأثناء كان قائد ولتانه قد قفل راجعا من فاس، فما كادت قدمه تطأ طرف تراب إيالته حتى نمت إليه أخبار الانتفاض، ولم يفلت من الاعتقال إلا فارا على صهوة جواده، تاركا زوجته وكاتبه وحاشيته، الذين وقعوا أسرى بأيدي المنتفضين، فجردوهم من ثيابهم وما كانوا يحملون. ولم يطمئن القائد على نفسه، إلا بعد أن ورد ماء زاوية تانغملت، حيث لاذ بشيخها أحمد بن العباس[88].

أ . نهب دار القائد:

لما شاع خبر فرار القائد، قصد المنتفضون مدينة دمنات التي تعد، في نظر العامة يومئذ، رمزا للمخزن؛ وبالتالي فهي رمز ما كان القائد يمارسه عليهم من استبداد وجور وطغيان[89]؛ وقد تناجزوا على أن تقوم كل قبيلة بهدم ربع من سور المدينة الذي يلي ترابها[90].

هكذا إذن اندلع الهجوم بعد صلاة عشاء إحدى ليالي العشر الأواخر من شهر يونيو 1894؛ فاقتحم المنتفضون مدينة دمنات، من جهة الملاح، لأن السور الموالي للحي اليهودي كان بدون أبراج. أي أن تلك الجهة كانت نقطة ضعف أفاد منها المهاجمون. وهنا يصور المؤلف ـ نقلا عن الشاهد الغجدامي ـ الحنق العميق الذي كان يَتَسَعَّر في

---

[87] م. س. ص. 55.

[88] ينظر أ. عمالك: التانغملتي، أحمد بن العباس، معلمة المغرب، 2222/7 ومصادره.

[89] تكررت هذه القضية كثيرا في القرن التاسع عشر بخاصة؛ إذ كان سكان البادية يهاجمون المدينة القريبة منهم، لأنها تمثل في نظرهم، فضلا عن الثروة، المخزن الذي كان يظلمهم ويستبد عليهم. فبالمدينة يقطن القائد، ومنها يأتي جباة الضرائب، وإليها تتجه المنتجات الجيدة التي يتعب البدوي في إنتاجها،،، ومن ثم، فلا غرابة أن يهاجم الأخماس شفشاون، وبنو مطير فاس، وكَروان مكناس، وبنو حسن سلا، وزعير الرباط، والشاوية الدار البيضاء، والرحامنة مراكش، وإينولتان دمنات....

[90] القول الجامع.. م. س. ص. 65.

صدور المنتفضين، حيث لجأوا إلى هدم وتخريب وإحراق كل ما وجدوه أمامهم؛ فلم يستثنوا رحي الماء، ولا المسجد، ولا السور. أي أنهم أرادوا بتكسير الرحي والسواقي، تجويع سكان المدينة، وبحرمانهم من الماء موتهم، وبهدم المسجد، قطع صلتهم بربهم، ليحرموهم حتى من التوسل إليه ليرحمهم. ولم يكن هدفهم من تحطيم السور سوى تجريد أولئك السكان من وسيلة كانت تساعدهم على التحصن. ولم يعمد المنتفضون إلى معاقبة"جميع سكان المدينة"، إلا لأن عددا منهم كانوا قد اعترضوا سبيلهم، محاولين الذود عن دار القائد بإيعاز من خليفته، أخيه المحجوب؛ الأمر الذي اضطرهم إلى اللجوء إلى العنف ضد كل من وقف في طريقهم. فكان ذلك مما عرقل سير المنتفضين، وأجبرهم على معاقبة الجميع، على الرغم من أنهم "عاهدوهم أن يقتصروا على أخذ بعض ما حاز الحاج الجيلالي منهم من قبلُ باسم الفرض"[91].

وعلى الرغم من موقف الغجدامي، ومن بعده نجيب، من المنتفضين، فإن النص صريح الدلالة على أن هؤلاء كانوا يقصدون دار القائد، وأن ما حدث من نهب الدكاكين والدور لم يكن إلا نتيجة المقاومة التي تزعمها أخو القائد، طوال الحصار الذي دام سبعة أيام. والدليل على ذلك أن كثيرا من السكان انضموا إلى صفوف المنتفضين، فألقوا السلاح، وفتحوا أبواب المدينة. ولم يبق أمام خليفة القائد إلا الفرار. وقد ترتب ذلك، انبعاث الإحن القديمة بينهم بدورهم. واشتد الخطب بتكسير السجن وفرار السجناء، وكان هؤلاء، وجلهم من أيت بوگماز، قد اعتقلوا من لدن القائد منذ سنة 1888/1304. فشارك كثير منهم أيضا في النهب والتدمير، فاختلط الحابل بالنابل، كما قيل[92].

ومهما كان الأمر، فإن المنتفضين اقتحموا المدينة مع شروق شمس اليوم الثامن من الحصار، وقد أن قررنا أنهم تناجزوا على أن تقوم كل قبيلة بهدم ربع من السور[93]. فقصدوا دار القائد الجيلالي، حيث لم يجدوا غير النساء، من بينهن إحدى زوجاته، فجردوهن من كل ما

---

[91] التسلي، م. س. ص. 317. وقد تصرفت في كلام المؤلف بما يناسب أسلوبي.
[92] القول الجامع.. م. س. ص. 56ـ57.
[93] م. س. ص. 65.

كن يحملنه. ثم نهبوا الزروع والأثاث والمال[94]، فضلا عن الدواب والمواشي. وبعدها عمدوا إلى تحطيم الجدران لسلب الخشب من الأبواب والسقوف وغيرها، ولم يتركوا أي مكان بدا لهم أنه قد يختزن شيئا إلا نبشوه، أو حفروه. ونتوقف عند حال من النهب، كما رسمها المؤلف، نقلا عن الغجدامي، حين قال:"أرى الرجل يحمل ما تحمله الدابة أو أكثر، فيخرجه ويطرحه في موضع تضع فيه فرقته.. ثم يرجع بسرعة فائقة ليحمل حملا آخر.." و"من الناس من يسوق عددا من البقر والغنم، ومنهم من يسوق عددا من البغال والحمير، ومنهم..."[95].

ولما انتهوا من نهب ما كان ظاهرا، انتقلوا إلى حفر الأرض ليصلوا إلى المطامير وما تختزن من حبوب وزيتون، وغير ذلك مما كان يدخر تحسبا للأزمات. وقد استمرت أعمال النهب ثمانية أيام، حتى أصبحت دار القائد (وكذلك الرياض) أثرا بعد عين، والمدينة خاوية على عروشها، الشيء الذي اضطر كثيرا من السكان إلى مغادرتها.

ولابد من الإشارة إلى أن معظم القبائل المحيطة بدمنات، بل والبعيدة منها أيضا كالسراغنة، قد شاركت في الهجوم على المدينة. وفي هذا مؤشر إلى حجم ما نُهبَ، حتى إن الناهبين عقدوا أسواقا للمتاجرة في المنهوب[96]. وللتعبير أيضا عن عداء المنتفضين المستحكم للقائد الجيلالي، اجتمعت كل فرقة من القبائل المنتفضة حول شيخ، عينته لتدبير شؤونها[97].

لكن القائد الجيلالي ظل يتابع ـ من تانغملت ـ عن كتب، ما كان يجري في إيالته، وبخاصة عبر بعض أنصاره، من المياسير الذين ظلوا يحتفظون بثروتهم، أو من بعض من استمروا موالين له لسبب من الأسباب[98]. فظلت المواصلة مستمرة بينه وبين هؤلاء بواسطة المراسلات الكثيرة، حتى إنه اتخذ كاتبا خاصا لتحرير الرسائل، يعدهم

---

[94] المقصود بالمال هنا القطع النقدية التي عبر عنها المؤلف باللويز والضبلون.

[95] م. س. ص. 60.

[96] م. س. ص. 59.

[97] م. س. ص. 62ـ63.

[98] منهم المدعو علي لعكَير، شيخ أيت وودنوست، م. س. ص. 65.

فيها بالجميل ويمنيهم، "مع أنه لا يقدر أحد أن يذكره بالخير"، حسب تعبير المؤلف. وقد نقل الغجدامي واحدة من تلك البطاقات، وكان القائد قد قال فيها: "بعد السلام، إنى كنت غافلا عن القيام بحقوق القرابة، وعن اتخاذ الأحبة من الأجانب حتى عضني الدهر بأنيابه، وخدشني الزمان بأظفاره، وقد استيقظت من سنة الغفلة، فإذا رجعت للمحل بحول الله أحسن السيرة، وأعامل الخاصة بما يقربهم مني، والعامة بما يحملهم على طاعتي اختيارا منهم، أو كلاما هذا معناه"[99].

والملاحظ أنه لم يتوانَ في الاعتراف بأخطائه، التي من أبرزها أنه لم يكن يحسن السيرة في رعاياه. علاوة على ذلك، فقد استعمل مخبرين يمدونه بكل ما كان يُذكر به في اللقاءات، وحتى حفلات الأعراس. من ذلك على سبيل المثال أنه توصل بنسخة من"قصيدة هجاه بها أحد الطلبة".

وكان المنتفضون، من جهتهم، يترصدون لكل من يتواصل معه، فينتقمون منه شر انتقام. فقد عمدوا، مرة، إلى القبض على أحد مخبريه ف"رموه من أعلى جبل شاهق، تمزقت أوصاله"، حسبما جاء عند مؤلفنا[100]. وفي ذلك الوقت أيضا انتفض زمران ضد قائدهم عبد السلام بن شگرا، والسراغنة ضد قائديهم محمد بن الطيب ومحمد بن الموذن، فقاموا بنهب كل ما امتدت إليه أيديهم، من مال ومتاع وزرع وبهائم وغيرها، فضلا عن إحراق الأشجار وتدمير المباني[101].

ومع ذلك كله فقد آل انتفاض إينولتان ـ ومختلف الحركات التي شهدها المغرب يومئذ ـ إلى الفشل؛ وهو ما يطرح التساؤل حول جدواها. ولعل هذا الفشل راجع بالدرجة الأولى إلى عدم توافرالمنتفضين على "نظرية" تجمعهم وتؤطرهم. أي أن مجرد إحساس الناس بالظلم والعسف، في بيئة يغلب عليها الجهل والفقر والأمية، وما يتصل بها من استشراء الفكر الخرافي والشعوذة، وفي

---

[99] التسلي.. م. س. ص. 114.

[100] ويدعى ابن عبو، م. س. ص. 63.

[101] م. س. ص. 50 ــ 51.

ظل عقيدة فاسدة، لم يكن كافيا لبلورة فكر ثوري يدرأ عن المظلومين الظلم، ويحل بينهم حكما عادلا.

ومن ثم، لم يكن انتفاض إينولتان، ومعهم كثير من القبائل كالرحامنة وعبدة والشاوية وغيرها، إلا مجرد فورة"شعبية"عفوية، غالبا ما وسمتها الفوضى، فترتب عنها إعادة إنتاج النمط المخزني نفسه. ونتبين ذلك بجلاء مما انتهى إليه انتفاض إينولتان. فقد اتفق منتفضوهم على تنصيب قائد يرضونه، وهو مُحمد بن حدو أبلاغ، بعد أن ألحوا عليه، واستيقن من رضاهم على اختياره. وكان هذا من عرفائهم، وممن ترضى سيرته عند ذويه، وله عصبية ترفده ويرتكز عليها. لكن الوفد الذي توجه معه لملاقاة السلطان، وهو مقيم بالرحامنة، قصد إقراره قائدا عليهم، مافتئ أعضاؤه يتخلون عنه، لينحاشوا إلى القائد الجيلالي بمجرد ما علموا بوجوده هناك للغرض ذاته. فلم يبق من شيعة أبلاغ غير ثلاثة نفر، هم الذين لجأوا معه إلى ضريح أبي العباس السبتي للاستحرام به، قبل أن يلتحق بهم ثلاثمائة طالب آخرين، أرسلهم أعيان إينولتان لدعم شفاعتهم عند السلطان[102]. أما بقية الوفد فقد توجهت للقاء الحاج الجيلالي بمحل نزوله ضمن محلة السلطان.

ب. رجوع الجيلالي الدمناتي قائدا على دمنات وانتقامه من المنتفضين:

هكذا رجع الحاج الجيلالي، بأمر سلطاني إلى دمنات، قائدا على إينولتان وإنفطواك رغما على أنوفهم. فدخلها مبديا كل مظاهر القوة والجبروت، بعد أن سحقت محلة مولاي الأمين التي صحبته، قبيلتي انفطواك وانتجطو؛ لأن سكانهما كانوا قد رفضوا القائد رفضا مطلقا، مفضلين الفرار والتحصن بقنن الجبال، بعد أن أضرموا النيران في مداشرهم. لكن صمودهم لم يطل أمام الحصار الذي ضربته عليهم قوات المخزن، والتي توافرت لها أسلحة فتاكة. يقول الغجدامي: "لكن البغاة جُلُّ عدتهم بُوشْفَرْ، والعسكر مستعد بعدة القرطاس وعمارته". أي

---

[102] م. س. ن.

أن عدم تكافؤ القوة هو ما حسم النزاع الدائر بين الطائفتين[103]. وبعد سقوط القبيلتين اللتين كانتا تشكلان رأس الانتفاض، لم يسع القبائل الأخرى إلا الإذعان، على الرغم من أن القائد الجيلالي كان يريد أن يستمر الاقتتال أطول مدة ممكنة لينتقم من السراغنة الذين شاركوا في انتفاض إينولتان، وكانوا يومئذ ضمن المحلة المخزنية[104]. أي أنه كان يسعى إلى الانتقام من "ظالم بظالم"، حسب تصوره السلطوي.

ولما عاد إلى مقر قيادته، مستظلا بالأسلحة النارية، ظانا أن الأمر قد استتب له، عمد إلى الانتقام من رعايا إيالته بأبشع الطرق والوسائل؛ فوظف عليهم مئونته ومئونة عياله. وفرض على كل قبيلة خمسين رجلا، وخمسين حمّارا - يوميا - لإعادة بناء داره. ومن تخلف يدفع بسيطتين غرامة. فكان يدفع مستخلص تلك الغرامة أجورا ل"لمْعَلّمين" الذين استقدمهم من مراكش. كما استعمل السجناء، فأمر بتوظيف خمسين منهم، في اليوم "للخدمة". وكلف، إلى جانب ذلك، عَمَلَةً من بعض المداشر التي اختص أهلها بحرفة معينة؛ ففرض على أهل عين سيدي مالك تعيين ثلاثة عشر رجلا لصنع الجير، والعدد نفسه على أهل مدشر بوغْرارْت لصنع الآجر، وستة رجال من أهل مدشر تُفْعْمات لصنع الجير. وفي الوقت ذاته صدرت أوامره لنسوة القبائل بجمع الحطب (الرطم) من الغابة، لطبخ الآجر، وحرق الحجر الذي يستخلص منه الجير. واستعمل مراقبين في أمكنة "الخدمة"، لمتابعة الأشغال، ومراقبة العَمَلَة. بل بث عيونه في كل مكان للتجسس على "الواقفين على الخدمة"من أجل إحكام الأشغال وإتقانها. وإذا ضُبِطتْ حالةُ تهاون أو تقاعس، يَنزل بصاحبها أشدُّ العقاب[105]. ولقد نال الفقيه الغجدامي بعض ما نال هؤلاء، إذ أُجبر بدوره على الجلوس كل صباح بفناء

---

[103] نقل المؤلف عن الغجدامي أن جيش المحلة كان يحارب بأسلحة عصرية، في حين لم يكن يتوافر للمنتفضين سوى بوشفر التقليدي، م. س. ص. 65.

[104] قُتِلَ من السراغنة عدد كبير في المواجهة التي وقعت بينهم وبين جطيوه الذين نوه المؤلف بقدرتهم الحربية العالية، وقد انتقم منهم الجيلالي لأنهم شاركوا في نهب داره؛ وهم الذين هاجموا الملاح، م. س. 66ـ68.

[105] م. س. ص. 73.

القصبة "لتقييد [من حضر ومن غاب من ال] خمسين خداما وخمسين حمَّارا" الموظفين على ربع دمنات، "وتوزيعهم على أماكن الخدمة". وكان يقوم بإنجاز ذلك العمل بدون مقابل. لكنه بعد شهرين ونصف من العمل، وقد نابه من ذلك معرة، التمس من القائد أجرا، فنفذ له بسيطة في اليوم[106].

ولما طال على أولئك المستضعفين أمدُ العمل، وبدت لهم "مغبة ما فعلوا"، استعطفوا القائد ليساعدهم برجال من فطواكة؛ فما كان جوابه إلا أن قال:"أنتم خربتموها، وأنتم عليكم ببنائها".

وعلى الرغم من إمعانه في التنكيل بالمنتفضين، فلم يكتف بذلك، بل لما أحس الاستقرار راح يبحث عما نُهب من داره، لاسيما بعد أن نما إلى علمه أن بعض الناس قد تبدلت أحوالهم. فكان يأمر بمن اتُّهموا فيُزَجُّ بهم في السجن، لتوضَع عليهم السلاسل والأغلال حتى يؤدوا ما اتُّهموا به. فإن كان المتهم من عامة الناس، فإنه يقضي مدة في السجن ثم يطلق سراحه. وإن كان من الخاصة فقد يُخَلَّد في السجن. ولا نجد أبين ولا أبلغ، في التعبير عن ذلك، مما ورد في "القول الجامع". يقول المؤلف:"وكان[أي القائد الجيلالي] يُدْخِلُ السجن كل من شم فيه رائحة أمواله التي انتهبت من داره، كائنا من كان. فمنهم من يشري نفسه، ومنهم من يبقى مسجونا إلى أن يموت تحت السلاسل والأغلال والضرب وأنواع العذاب. وتقدم أنه مات في سجنه تسعمائة رجل"[107].

إلى جانب ذلك، فقد امتحن كل من تصدر للمشيخة، "زمن السيبة". فمن أولئك الشيوخ من مات في سجن مصباح بمراكش، مثل علي الغوات، ومنهم من مات بسجن دمنات، مثل حسي الشْتاشْني، ومنهم من طيف به في الأسواق، وذاق مختلف ألوان العذاب، مثل الرايس نُو شان. وينبغي ألا يتم غض الطرف عن غلظ قلب ذلك القائد، إذ لم يكن يخفر لبعض مطلوبيه ذمة حتى لما يستحرمون ببعض الصالحين، أو يستشفعون لدى بعض أعيان البلاد. بل كان يأمر زبانيته

---

[106] م. س. ن.

[107] م. س. ن.

باعتقال كل من اتهمهم بنهب داره، حتى لما ضاق بهم سجن دمنات، بعث بالباقين إلى سجن مصباح بمراكش.

وقد أمر بجلد بعضهم، حتى تساقط لحمه، قبل أن يزج به في غياهب السجن، مثلما فعل بالمدعو ناصر نايت الفقيه، وهو طالب حامل لكتاب الله[108]. وخلد البعض في السجن على الرغم مما دفع من مال فداء لنفسه. وإلى جانب ذلك، فلم يكن يتورع عن تجريد كثير من الناس من أملاكهم وبهائمهم وأمتعتهم، كلما أتيحت له الفرصة[109].

ولما رأى السكان أن القائد الجيلالي لا يزال ممعنا في حقده وحنقه عليهم، لم يسعهم إلا الفرار، خوفا من السجن أوالتعذيب أو مصادرة الممتلكات[110]. فعلاوة على إعادة بناء داره، والأموال الطائلة التي جناها بالطرق المذكورة، فإن جشعه لم يكف عن الازدياد، حتى كان يبعث، كل يوم اثنين[111]- مما كان يبتز من مال - بخمسمائة ريال إلى مراكش، بواسطة الدباغين، يسلمونها لصديق له يدعى عبد السلام القباج الفاسي؛ ليحولها إلى قيم ذهبية مُعَدَّة للاكتناز[112]. وقد ضاق الدباغون بذلك ذرعا، فغيروا موعد سفرهم إلى يوم الأربعاء، فأجبرهم من جديد على حملها.

ج . اغتيال القائد الجيلالي الدمناتي:

لا عجب، إذن والحال هذه، أن يلقى حتفه مغتالا بطريقة بشعة، على يد ناصر أيت الفقيه الامغاري، الذي كان قد اعتدى عليه بالضرب والسجن[113]. فقد طعن ناصر المذكور القائد، في أثناء صلاة الجمعة، وهو في السجدة الأولى من الركعة الأولى (ربيع الأول عام

---

[108] القول الجامع، م. س. ص. 71.

[109] م. س. ص. 72.

[110] م. س. ص. 69.

[111] م. س. ن.

[112] م. س. ص. 69-71.

[113] م. س. ص. 15.

1904/1322). وكانت الأداة التي نفذ بها الاغتيال خنجرا أمضى مدة في بريه، على مرأى من المارة ومسمعهم[114]. وكانت طريقة الاغتيال أبلغ تعبير عن الحنق الذي أوغر الصدور، والكراهية التي عمت القلوب[115]. وهذا ما عبر عنه المؤلف حين قال:"ضربه سي ناصر الامغاري بحديدة بين كتفيه، فخرجت من صدره إلى فخده، فوضع رجله على ظهره، فأخرج الحديدة، فضربه ثانية، فصرخ في الأولى صرخة منكرة، ثم صرخ في الثانية مثلها"[116]. ولم يكن ذلك، والحال هذه من الاستبداد والشطط، ليخفى على بعض دهاة الوقت، حيث نما إلى الضمائر توقع مؤامرة الاغتيال، لأن القاتل كان قد استشار البعض حول ذلك الموضوع. ومن ثم، فقد حاول صديق الحاج الجيلالي قائد السراغنة، الجيلالي بن الموذن، ثنيه عن الخروج لصلاة الجمعة يومئذاك، لأنه كان على علم بالمؤامرة، لكن أجل حتفه كان قد حان[117]. يقول الغجدامي:"ويوم الذي قبل يوم الجمعة التي قتل فيها أرسل له السيد الجيلالي بن الموذن صاحبه يخبره بان الخاصة من إيالته اتفقوا على قتله في صلاة الجمعة، ونهاه عن الخروج من غده، فخالفه لمقتضى من قدر الله"[118].

وأظن أن مكان دفن المغتال ـ بضريح سيدي ناصر أوُ علْي ـ لم يكن لتكريمه، كما قد يتبادر إلى ذهن البعض؛ بل كان الهدف منه حفظ جثته، نظرا لما يعتقده العامة من حرمة المكان، ولاسيما أنه كان مجاورا لمسجد القصبة. وإلا فلو دفن في الضريح الذي كان قد بناه على قبر والده، أو في مقبرة عادية، لعمد المنتفضون إلى نبش قبره، واستخراج جثته لإحراقها، إمعانا في الانتقام منه لِما لحقهم من ظلم وعسف طوال عهده.

---

[114] بينما نقل عن القائد عمر أن آلة الاغتيال كانت عبارة عن خنجر، وأن القاتل كان لائذا بضريح سيدي أبي البخت. وقد آثرنا اتباع رواية الفجدامي لأنه معاصر لذلك الحدث م. س. ص. 16.

[115] م. س. ص. 22.

[116] م. س. ص. 16.

[117] م. س. ص. 21 و24.

[118] هذه رواية الفجدامي، وقد اختصرها مؤلفنا .. التسلي.. م. س. ص. 112.

د . اختيار قائد المنتفضين وخذلانه:

بعد اغتيال القائد الجيلالي الدمناتي، عمد السكان من جديد إلى نهب داره وممتلكاته. إلا أن نهب هذه المرة قد شارك فيه حتى أهل داره، من ذوي قرباه وخدمه[119]. وبعد أن أحيط بثروته انتقاما منه، اجتمع "أهل الحل والعقد" من الدمناتيين، وأجمعوا أمرهم على اختيار قائد لتدبير شؤونهم. فقرروا تعيين المسمى الحاج مُحمد بن حدوٌ أبَلاغ - مرة ثانية - لِما توافر فيه من صفات كانوا يرضونها[120]. وبعد قبول شرطه، الذي اشترطه عليهم، وهو الذهاب إلى السلطان لإقراره وتزكيته، قبل طلبهم. فاستناب عمه عبد السلام أبلاغ، الذي كان شيخا على فرقته گرْوْلْ، لتدبير شؤون دمنات في أثناء ذهابه، هو صحبة أعيان إينولتان إلى حضرة السلطان ليلتمس ظهير القيادة. وقد ألح المؤلف على أن تعيين عبد السلام هذا قد ترتب عنه إحباط المؤامرة التي تولى كبرها المدعو محمد لقلالش، زعيم فرقة إيواريضَنْ.

ولما رجع محمد أبلاغ حاملا ظهير التولية، شرع في اعتقال متزعمي تلك المؤامرة، فعم الأمن مدينة دمنات في عهده؛ واسترجعت بعض نشاطها، ولاسيما على الصعيد التجاري. لكنها فقدت جانبا من أدوارها السياسية والإدارية التي كانت قد أثلتها زمن الحاج الجيلالي، لأن بعض القبائل القوية، مثل تُگانه وغجدامه وفطواكه، انسلخت عنها لتنضوي تحت لواء أسرة گلاوة[121]. إلا أن هؤلاء ما فتئوا يكيدون لهذا القائد، حتى دبروا له مؤامرة ذهب ضحيتها[122].

لكن لا بد من الإشارة إلى أن التآمر ضد أبلاغ قد بدأ من داخل دمنات، إذ أن المتآمرين كانوا قد عزموا على منعه من الدخول إلى المدينة، بعد رجوعه من حضرة السلطان. وحتى لما رجع، وأضحوا

---

[119] م. س. ص. 15. ومن أقربائه ولدا أخيه المحجوب اللذان كانا خليفتيه على قبيلة غجدامة.

[120] القول الجامع.. م. س. ص. 16.

[121] م. س. ص. 16ـ18.

[122] م. س. ص. 18.

مجبرين على قبول "الأمر الواقع"، فإن خاصته، وكانوا "يأكلون ويشربون مع أبلاغ المذكور صباحا ومساء، ولا يتركونه إلى وقت النوم ليلا، وهو واثق بأمانتهم..ومع ذلك كانوا يتراسلون مع علال الكَلاوي"، هم الذين حاكوا المؤامرة مع كَلاوة، ومهدوا لدخولهم مدينة دمنات[123].

وإذا لم يفصح المؤلف عمن أوغر صدر السلطان الجديد يومئذ على محمد أبلاغ، حتى أراد أن يعتقله، لولا أنه تعلل بالمرض حين بعث في طلبه، وهو مخيم بقلعة السراغنة، فقد اتضح أنه كان من بين من ظلوا موالين للسلطان عبد العزيز، على عكس كَلاوة الذين انحازوا إلى السلطان عبد الحفيظ.

ومن ثم، فإنني مستيقن من أن هؤلاء هم الذين أوغروا صدره على أبلاغ، لأنهم لم يغفلوا عن أهمية دمنات والقبائل المحيطة بها[124]، وما كان يتوافر بها من موارد، سواء من التجارة، أو من الجبايات والسخرة؛ ولاسيما حين أضحى مجال نفوذهم يلامس ـ من الجنوب والغرب ـ مجال تلك القبائل التي تتحكم في الطريق التجاري الواصل بين جنوب المغرب وشماله.

وفي هذا السياق، استغل كَلاوة غياب جيش أبلاغ الذي بعث به لدعم القائد ابن بوشعيب السرغيني في أثناء مواجهته للمنحرفين عن طاعته، ليباغتوه في عشرة من اتباعه ويقتلوه[125]. ومعلوم أن أبلاغ كان قد اتصل بصديقه المرابط مح الحنصالي، صاحب النفوذ الكبير لدى القبائل القوية، كأيت عباس وأيت مَحمد وأيت بوزيد وأيت شخمان، ليدعمه ضد خصومه كَلاوة. وقد ورد الحنصالي دمنات، ونزل بها ضيفا عند أبلاغ، فأبدى كامل استعداده لمساندة صديقه بكل ما يلزم، متى وصله منه رسول في ذلك الشأن[126].

---

[123] م. س. ص. 19.

[124] القول الجامع.. م. س. ص. 19.

[125] م. س. ص. 20.

[126] م. س. ص. 21. والعبارة لأستاذنا أحمد التوفيق: المجتمع المغربي.. م. س. ص. 608.

وأيا ما كان الأمر، فبعد مقتل القائد أبلاغ برصاصة طائشة، يوم السبت 21 ربيع الثاني عام 1908/1326[127]، آل أمر قيادة دمنات إلى علال المزواري، فدخلها مدعوما ب "المدفع الكبير" الذي زوده به أخوه الحاج المدني، بعد أن نجح في استمالة أعيان المدينة[128]. وقد شهد الغجدامي أحد مجالس علال المزواري صحبة أولئك الأعيان، فقال: "وهم يقررون ذلك لتثبت لهم المحبة في قلب المتولي"[129]. وهنا أيضا تبدأ مرحلة جديدة من الصراع، بين الرعايا وقائدهم الذي فُرِضَ عليهم بالقوة.

هـ. دخول كَلاوة حلبة الصراع على قيادة دمنات:

لقد امتنعت القبائل والفرق الجبلية التي ظلت وفية لأبلاغ، وبخاصة إخوانه فرقة كَرْوْلْ، عن أداء فروض الطاعة لعلال المزواري[130]. بل إن ابن عم أبلاغ المدعو مَحمد قد انسحب من جيش المدني الاكَلاوي، لينضم إلى المنتفضين، بعد أن استغاث بجماعة من المقاتلين من أيت عباس، ومن القبائل المجاورة، لمواجهة علال المزواري وشيعته[131]، حتى إن المؤلف ليؤكد أنه "لم يدخل منهم أحد في طاعة القائد علال"، على الرغم من استعماله ل "المدفع الكبير". وقد شرح المؤلف أسباب عجز جيش القائد علال عن هزم الممتنعين قائلا: "لأنهم يقاتلون قتال المذعن للموت، وتحصنوا بجبل ممنوع السلوك، ولم يقاتلوا قط من داخل الديار"[132]. ولم يقفوا عند هذا الحد من الاستماتة، بل ركبوا مركبا صعبا لما ولوا على أنفسهم "شيخا كبيرا"يدعى أولعيد أوُ حْسايْن، ارتضوه ليعين لهم شيوخا"من إخوانهم"، وتواضعوا على وضع عُرْفٍ لفصل الخلافات التي قد تنشب فيما بينهم.

---

[127] نوه به المؤلف فقال: "مات موت الأبطال، حرا، وهكذا تموت الأبطال". م. س. ن.

[128] م. س. ص. 20.

[129] التسلي.. م. س. 172.

[130] القول الجامع.. م. س. ص. 21.

[131] م. س. ص. 22.

[132] م. س. ن.

وقد لاقى القائد علال عنتا كبيرا في محاربتهم، حتى لما وجه إليهم حَرْكَة قوية، برئاسة القائد بوزْكْري التادلاوي الذي انهزم ولم ينجُ من الموت، أثناء المواجهة، إلا بالفرار. يقول أحمد نجيب: "وتبعوهم [أتباع أولعيد أوحساين] بالقتل والنهب والسلب إلى حين خرجوا من بلاد ولتانه... وقتل من أهل فطواكه ما لا يحصى، ومن ولتانه الذين معهم ما لا يحصى"، إلى أن يقول: "وكانت هذه الهزيمة الشنيعة آخر قتال بين القبائل والقائد سي علال"[133]. ولما فشل في إخضاع تلك القبائل أمر زبانيته باعتقال كل من صادفوه، حتى ملأ سجون دمنات ومراكش وتلوات[134]. وللإشارة فقط، فقد كان مؤلف "التسلي" من ضمن الفرقة الأولى التي اعتقلت في سجن مراكش، حيث قضى سبعة وعشرين شهرا[135].

و. قيادة علال المزواري الثانية:

إلى جانب ما ذكر، لم يتوانَ مؤلفنا عن تسجيل كل ما كانت بلدة دمنات، تُرَجِّعُه من صدى الأحداث والوقائع الوطنية. من ذلك مثلا احتلال الشاوية، وبعدها فاس، ثم انعقاد الحماية الفرنسية على المغرب، وما ترتب عن ذلك من حركة الهيبة، وإبعاد التهامي الاگلاوي عن باشوية مراكش، وما واكبه من ولاية إدريس أمْنُّو مكانه، وتعيين الناجم الاخصاصي نائبا عنه بكل من دمنات وولتانه وفطواكه، والقائد الحمري نائبا عنه بمسفيوة. وبعزل الاگلاوي، عن باشوية مراكش، لم يبقَ أمام علال المزواري إلا مغادرة دمنات[136].

لكن لما دخل الغزاة الفرنسيون مدينة مراكش، أعادوا التهامي الاگلاوي إلى منصب الباشوية في هذه المدينة، التي غادرها إدريس أمنو، في حين اضطر الناجم الاخصاصي إلى التخلي عن قيادة دمنات

---

[133] م. س. ص. 23.

[134] م. س. ن.

[135] م. س. ص. 24.

[136] القول الجامع.. م. س. ص. 24.

وولتانه. وهذا ما فسح المجال لرجوع علال المزواري إلى القيادة من جديد، ليتسع مجال كَلاوة يومئذ فشمل مسفيوة وتُكَانَه وغُجْدامَه، وقسم كبير من فطّواكه[137]. إلا أن قبيلة وَلتانَه اتفقت، هذه المرة أيضا، على رفض القائد علال، وعمدت إلى ملاحقة كل من اتصل به، وقررت أن كل"من ذهب عنده، أو تلقى [كذا] معه جهرا أو خفية، فقد عرض نفسه للموت وحرق داره"[138]. وقد نفذ المنتفضون مقتضى ما اتفقوا عليه. مثلا: لما التحق بالقائد علال "شيخ أيت معياض السيد محمد بن احماد، حين استقر به المقام في القصبة... اجتمعوا عليه فقتلوه وأحرقوا داره". وفي الوقت ذاته عينوا "لكل ربع من قبيلة دمنات شيخا تحت رئاسة الشيخ الفوقاني، ألعيد أحساين الابلالي".

فلم يبق مع المزواري إلا أهل القصبة، وأهل أرحبي، الذين ضاق عليهم الخناق، ولاسيما بعد محاصرة المدينة، وكسر الساقيتين، "والحال أن الوقت وقت زرع الخضراوات والمزكور، واتصل ذلك ستة أشهر"[139]. ولعل طول الحصار قد دفع أنصار المزواري، من فطواكه وأهل دمنات بدورهم، إلى الانحراف عن طاعته بتأثير من الشيخ حمُّ أسْكور المْعَلاوي، الذي كان هواه مع معارضي القائد علال؛ حيث "لم يبق معه إلا أهل دمنات يتسترون بأسوار المدينة وأبراجها". فاستمر القتال بين الفريقين حتى بعث القائد بالسيد يوسف الناصري، صاحب زاوية تِغَرْمين، وسيطا بينه وبين أعيان ولتانه من المنتفضين، على أساس عقد الهدنة وإصلاح الساقيتين.

فلما توصل أولعيد أوحساين برسالة الشيخ الناصري رد عنها قائلا: "أما عن عدم قبولهم لتوليته، فلجوره وظلمه وتعديه الذي لم يسبق له مثيل من أمثاله. فإن الذين تقدموا قبله من العمال إذا سجنوا أحدا من أهل القبيلة، فإنه يسجن في بلده يتفقده أهله وينظرون إليه متى شاءوا، ولا يضيع، وأن متاع المسجون يبقى تحت يد أهله يتعيشون منه معه.

---

137 م. س. ص. 25

138 م. س. ن.

139 م. س. ن.

وأما مبعوثك[140] سي علال فقد ملأ بإخواننا سجون تلوات وسجون أيت ورير وسجون مراكش، وغربهم عن أهلهم وذويهم ووطنهم؛ وكانوا عرضة للضياع في السجون، خارج بلادهم. وقد حاز هو أموالهم وأمتعتهم وبهائمهم، فيضيع المسجون ويضيع أهله عالة على أهل القبيلة. وأما ما يتعلق بالساقيتين، فسيجيبك عنهما أهلهما، أهل دمنات قائلا[141]: إن الماء يُطلب للسكنى، أما نحن فلا نسكن بلدا يوجد فيها مبعوثك سي علال الذي هذا وصفه".

هكذا بدا جواب الشيخ "الفوقاني" واضحا، معبرا عن استياء السكان من جور القائد علال وعسفه. وإذا كان أولئك السكان قد سلموا باعتقال بعض إخوانهم الذين حق عليهم السجن، فإنهم رفضوا رفضا قاطعا تغريبهم إلى السجون المذكورة، لأن ذلك مضر بهم وبذويهم[142]. كما يبدو أنهم تنازلوا عن حقهم من الماء، وهو عصب الحياة في تلك الجهة، لا لسبب إلا لأنهم يرفضون العيش تحت ذلك الحاكم الذي لم يسبق لجوره نظير[143].

ز. قيادة عبد المالك الاكَلاوي:

ولما رجع الوسيط حاملا جواب المنتفضين، لم يسع المدني المزواري الداهية، الذي أدرك جيدا دلالات ذلك، إلا عزل أخيه، وتعيين حاكم جديد؛ ويتعلق الأمر بابنه السيد عبد المالك المزواري. ويعتقد المؤلف أن في ذلك "خيرا للمعزول ولمدينة دمنات على حد سواء"، لأن المنتفضين كانوا قد عقدوا العزم على "هدمها حجرا حجرا.."[144].

---

[140] كذا، ويقصد وباعثك أو مرسلك، وهذا أيضا من العجمة التي لم يستطع مؤلفنا التغلب عليها. م. س. ص. 26 ــ 27.

[141] كذان وهو يقصد: قائلين. القول الجامع.. م. س. ص. 27.

[142] م. س. ص. 26.

[143] م. س. ص. 27.

[144] م. س. ن.

لكن المنتفضين رفضوا الرجوع إلى دمنات متمادين في انتفاضهم، مادام فرع المزواريين حاكما عليها، لاسيما وأن والده المدني الاكّلاوي قد دخلها صحبة جيش فرنسي. لعله فعل ذلك لتوهين عزم أولئك المنتفضين، وتثبيط هممهم، وبخاصة بعد أن عبر هو والضابط الفرنسي - قائد الحملة - المدينة من الجنوب الغربي إلى الشمال الشرقي. أي أنهما دخلا من باب العرب (إعرابن) وخرجا من باب العيد، لأن المحلة بقيت مخيمة بإمليل[145].

5. صفحة من بطولات رجال الأطلس:

أ . وقوف ولتانه في وجه الغزاة:

لعل ذلك "التفقد" العابر قد أوهم الفرنسيين وأعوانهم أن الأمر قد استتب لعبد المالك الاكّلاوي، فسحبوا جيشهم وخيموا بقبيلة العنابرة، من السراغنة، ليراقبوا الوضع عن قرب. لكن ذلك كان بمثابة صب الزيت على النار، لاسيما وقد تبدلت الأحوال، حيث اندلعت المقاومة في كثير من جهات المغرب، فغدا المنتفضون ينادون بقتال النصارى، وشنوا هجوما كاسحا على المدينة، بزعامة أُوُ لعيد أُوُ حْسايْن، ل"هدمها وإجلاء أهلها، بعد هدم ديارهم، لكونهم يجلبون لهم الكفار"على حد تعبير مؤلفنا[146]. أي أن المنتفضين نهضوا بدور مقاومة المستعمر الفرنسي، وكل من لف لفه.

ونشير، هنا عرضا، إلى أن المؤلف نفسه قد غير بعض لهجته في التعبير عن الأحداث، فأضحى ينعت المنتفضين ب "السياب"، وهي صفة أقل قدحا، في نظره من صفة البغاة التي كان يستعملها قبل. وفي الوقت ذاته بعث أُوُ لعيد أُوُ حساين البعوث إلى شيخ إحنصالن سيدي مِحْ الذي كانت تصله به أواصر متعددة. فأبرم الحنصالي حلفا قبليا ضم كلا من أيت عباس وأيت مَحمد وأيت مْصَّاض وأيت شُخْمان وأيت بوزيد

---

[145] م. س. ن. أما اعتقاد المؤلف أن الفرنسيين قد خيموا بزاوية تغرمين، فذلك مجرد سبق قلم، كما سوف يتضح لاحقا.

[146] م. س. ص. 28.

وهَنْتيفَة، وزحف بهم جميعا قاصدين دمنات لمحق الجنود الفرنسيين بزعامة الجنرال دولاموط، وسحق من انضم إليهم من المغاربة المنضوين تحت لواء گلاوة[147]. هنالك لاذ عبد المالك المزواري بالفرار، ومعه أنصاره من أعيان فطواكه، متسترين بجنح الظلام، لكن الذين ظلوا مناهضين لگلاوة - من هؤلاء - عمدوا إلى نهبهم و"تجريدهم من كل شيء حتى من ثيابهم"؛ فلم يبق أمام أهل دمنات من مخرج سوى إغلاق أبواب المدينة، والاستعداد للدفاع عن أنفسهم.

لا شك في أن ما حدث بدمنات قد راع الفرنسيين وخدامهم گلاوة، فزحفوا من جديد على هذه المدينة، انطلاقا من العنابرة حيث كانت محلتهم مخيمة. وقبل أن يصلوا إلى المرتفعات القريبة من الحدود بين ولتانه وأيت ماجطن، فتحوا نيران مدفعيتهم الثقيلة على جبل گَنَتتِ القريب من تنانت، وعلى جبل بوحلو - شرقي دمنات - لإرهاب القبائل التي لم يسبق لها أن رأت مثل ذلك السلاح الفتاك. يقول المؤلف:"وهكذا زعزع دويها وصوتها أركان الجبال والقلوب، وأصم الآذان، وأعمى غبار القذائف الأبصار، بل حتى البصائر، خصوصا لم يسمعوا مثل ذلك في أعمارهم، ولا رأوه"[148]. فكان لذلك أثره السلبي على المجاهدين الذين تفرقوا، ولاسيما حين استسلمت مدينة دمنات بدون مقاومة[149]، وتراجع سيدي مِحْ الحنصالي إلى منطقة الحدود بين هنتيفة وأيت مصاض؛ في حين تحصن أولعيد اوحساين بجبل منيع عند أيت زياد بوَريضَه[150]. أما الحملة الفرنسية المدعومة من لدن گلاوة، فقد خيمت من جديد" بأسفل إمليل من الموضع الذي انتقلوا منه"، لينصبوا مدافعهم صوب المدينة، كأنهم يريدون تدميرها، بسبب ما شاع من أن أهلها تمالأوا مع المجاهدين على طرد ممثل المخزن الجديد[151].

---

147 م. س. ن.

148 القول الجامع.. م. س. 29.

149 م. س. ن.

150 م. س. ن.

151 م. س. ن.

مراحل الغزو العسكري الفرنسي لدمنات ومحيطها

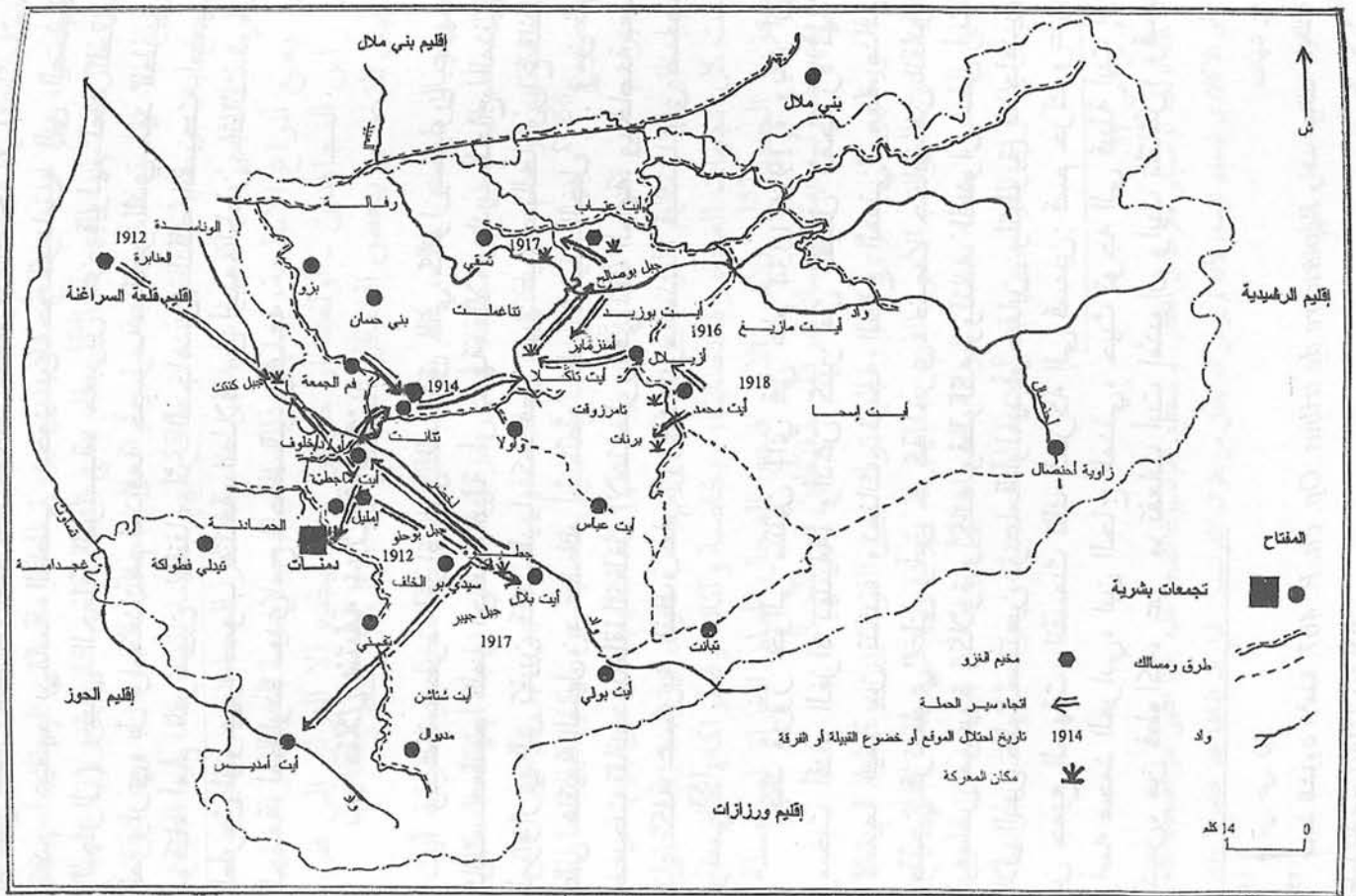

الإنجاز: العلوي 2011

لم يسعْ سكان دمنات، أمام تلك الحملة العسكرية القوية، إلا الاستسلام، فتقدم أعيانهم برئاسة القاضي محمَد بن حمُّ كرداس، إلى الضابط (الجنرال) رئيس الحملة الفرنسية، معبرين عن قبولهم لعبد المالك المزواري، بل واستعدادهم لمدافعة خصومه، الأمر الذي مهد الطريق مؤقتا، أمام الفرنسيين لاقتفاء أثر المجاهدين. لذلك انفسحت أمامهم الطريق ليتوجهوا صوب هنتيفة، انطلاقا من أيت ماجْطَنْ، فتَنانْتْ ثم قُمْ الجمعة، لمطاردة سيدي مح الحنصالي وأتباعه.

ب. احتلال هنتيفة بدون مقاومة:

ولدعم سيطرة الغزاة على المناطق التي كانوا يستولون عليها، كانت حملتهم كلما احتلت قبيلة أو جهة، إلا وبادر الحاج المدني المزواري إلى تعيين قائد عليها، كما فعل حين عين صالحا أوْراغْ قائدا على هنتيفة السهل، وعبد الله أوُ شْطُّو على هنتيفة الجبل[152]. ومن ثم أصبحت تنانت منطلقا للتغلغل الاستعماري في تلك الجهة، وبخاصة بعد بناء ثكنة عسكرية هناك، عام 1914/1332، أسندت قيادتها إلى ضابط فرنسي[153].

وبعد مرور حوالي سنتين [أي في عام 1916/1334]، وبعد أن رسخت أقدام الغزاة بهنتيفة، وأذعن كثير من القبائل المجاورة لها، ولاسيما فيما بين تنانت ودمنات، توجه الحاج المدني"ومعه مدافع وطَبْجي فرنساوي"على رأس حركة أخرى، ضمت جحافل من انقادوا إليه، من مَسْفيوة وكَلاوة وتُكَانه وفَطْواكه وولتانه، للعدوان على أيت بْلال الذين ظلوا ممتنعين بزعامة أولعيد أوحساين. ولتطويق المجاهدين من جميع الجهات، انقسمت تلك الحركة إلى قسمين: قسم حَرَكَ وعلى رأسه محمد العرابي، ابن الحاج المدني، حيث توجه إلى قبيلة أيت أوُ مْديس، من فطواكه، عبر مرتفعات أيت امْديوال وأيت شْتاشْن؛ وقسم

---

[152] م. س. ص. 30.

[153] ضابط للشؤون الأهلية *Répertoire de tribus..Op. cit..P. 467.* وأحمد عمالك: تانانت، معلمة المغرب، 2214/7 ومصادره.

تقدم به المدني، ومعه قواد هنتيفة انطلاقا من تنانت؛ فعبروا قنطرة واد الاخضر، من أيت صالح، قاصدين بؤرة المقاومة التي لم تكن سوى أيت بْلال المشار إليهم آنفا[154]. فلم يسع القبائل التي كانوا يمرون عليها يومئذ إلا الاستسلام، نتيجة ما رأوا من جحافل الجيوش، وما كانت تتدجج به من أسلحة فتاكة، لا طاقة لهم بمصاولتها. كما أن الغزاة استرهبوا الناس بما أقدموا عليه من هدم لمداشر المجاهدين، وتجريدهم من جميع أنواع الأسلحة، بما في ذلك الدواب ولاسيما الخيول والبغال. أما رأس المجاهدين - أولعيد أو حساين - فلم يُجْدِهِ إلا الفرار إلى قنن الجبال للتحصن ببعض المعاقل "ليقضي الله أمرا كان مفعولا"[155].

وبالرغم عن ذلك، فقد مكثت تلك الحركة محاصرة لفرقة أيت بلال، طوال أسبوع، مطلقة أيدي مرتزقتها في نهب أمتعة السكان وممتلكاتهم وهدم مساكنهم، إمعانا في امتحانهم لإرغامهم على الخضوع[156]. وهنا أيضا كان الحاج المدني كلما أذعن سكان قبيلة ما إلا وأجبرهم على تقديم "الهدية"عربونا على "طاعتهم"، وعين لهم شيخا منهم، لتوطيد دعائم الفرنسيين هناك. ولم يحلَّ حول 1917/1335 حتى كانت كل الجهات المجاورة لدمنات، وبخاصة وَلتانه وفطواكه، خاضعة للمخزن الجديد[157]، الأمر الذي فسح المجال أمام الغزاة لمواصلة طريقهم صوب أيت مصاد شرقا، متغلغلين في الجبال.

ويظهر أن جدوى الغزو المشترك بين الفرنسيين وگلاوة لم تعد خافية عن الغزاة، الأمر الذي جعلهم لا يترددون في عقد اتفاق مع الحاج المدني، هدفه خضد شوكة المجاهدين. وهنا لا بد من أن نشير إلى أن الغزاة الفرنسيين قد أعدوا لذلك عدته، من طائرات حربية،

---

154 م. س. ص. 31.

155 كان أولعيد أوحساين مفرطا في القصر، لم يستطع الفرنسيون القبض عليه. ولما انتهى أمر أصحابه قدم على الاكلاوي ليسلم نفسه، لأنه لم يرض أن يقتل من طرف الفرنسيين. قيل إن الباشا عفا عنه، لما رأى من شهامته.

156 القول الجامع..م. س. ص. 31.

157 م. س. ص. ن.

ومدافع ثقيلة، ومرتزقة سنيغاليين وجزائريين، لم يكونوا يرقبون في أولئك السكان إلاّ ولا ذمة.

هذا، فضلا عمن جندتهم السلطات الفرنسية من المغاربة، بمباركة الحاج المدني. وبعد الاجتماع الذي عقده الفرنسيون مع هذا وقائدي هنتيفة في مركز تنانت (القشلة)، وبعد وضع خريطة الخطط العسكرية التي عزموا على تطبيقها، والتي اقتضت أن تقوم الطائرات بطلعات استكشافية لتحديد مواقع المجاهدين المتحصنين بالأوعار التي تغطيها الغابات، في حين تعمد المدافع إلى ما يسمى بأعمال التغطية، لفسح المجال أمام الجنود.

ج. نهوض الحنصالي بأعباء الجهاد:

وبعد أن يئس الغزاة من قدوم المجاهدين، من أيت مصاض وأيت عتّاب المنضوين تحت لواء سيدي مح الحنصالي، مستسلمين مذعنين، ولا نشك في أنهم أرسلوا إليهم البعوث ل "مساومتهم"، قرروا الطعن بحملتهم العسكرية الكبيرة التي رتبوها على ثلاثة أقسام: في الميمنة الجيش الذي يقوده الحاج المدني، وفي الميسرة جيش هنتيفة الذي يرأسه القائدان أوراغ وأوشطو، بينما يتوسطهما ـ في القلب ـ جنود الغزاة الذين يقودهم الضباط الفرنسيون[158].

ومما يُفْهَم من الأوامر الذي أصدرها الضابط الفرنسي، رئيس الحملة، أن الجيش الذي كان تحت إمرته هو الذي ينبغي أن يخوض المعركة، لأنه يرسل القذائف المدفعية من بعيد، بينما تظل الحملتان اللتان يقودهما المغاربة تنتظران أوامر ذلك الضابط، لتشتبك بعد ذلك، بالمجاهدين في أثناء الالتحام بهم. ومن ثم، تبقى خسائر الفرنسيين محدودة، في الوقت الذي يكون فيه المغاربة، من الطرفين، هم وقود القتال. كما كان لأمره بتركيز الهجوم على مواقع إحنصالن[159] أكثر من دلالة، حيث سعى إلى تحطيم الزعامة في بدء القتال؛ لينهي المعركة

---

[158] وهم يتكونون من السنيغاليين والجزائريين. م. س. ن.

[159] القول الجامع.. م. س. ص. 32.

بأقل الخسائر. ويدل ذلك أيضا على أن الغزاة لم يكونوا يدخرون وسعا في شراء الذمم للاستخبار عن معسكر عدوهم. وبعد تنظيم كيفية التواصل بين الضابط الفرنسي والحاج المدني، كان آخر ما أمر به ذلك الضابط، هو عدم إقحام حملتي المجندين المغاربة في القتال قبل صدور أمره بذلك. وبهذا التنظيم صدرت الأوامر بارتحال تلك الحملة من تنانت في اتجاه أيت مصاض[160].

د. معركة إمَنْزْمايْزْ واحتلال أزيلال:

أما المجاهدون فقد ظلوا مرابطين بمنطقة أيت تَاكَلا الغابوية، على الحدود الفاصلة بين هنتيفة الجبل وأيت مْصَّاضْ، منتظرين وصول الغزاة للانقضاض عليهم[161]، حيث اختاروا مخيمهم بموضع يدعى "إمنزمايز"، وهو عبارة عن جبل وعر يشرف على منطقة غابوية تدعى أفرَوْ، يقع اليوم شمالي الطريق الثانوية، المتفرعة عن الطريق الرئيسية الواصلة بين تنانت وأزيلال، والمتوجهة إلى شلالات أزوض[162]. ولا أجد في هذا السياق، أبلغ من تعبير المؤلف في وصف ذلك الموضع، حيث يقول: "وكان الموضع هذا صعب السلوك، متصل الصخور، ويظنون بل يجزمون بأن الصخور والأشجار الشائكة، وصعوبة المسالك تمنعهم من عدوهم؛ ولكن هيهات، مع القنابل والمدافع والطائرات"[163]. ونشير إلى أن صفوف المجاهدين، من أيت مصاض وأيت عتاب، قد تعززت بانضمام كل من أيت عباس وأيت شخمان وأيت بوزيد وأيت مَحمد وأيت إسْحا. وهكذا فما أن شارفت جيوش الغزاة أيت تاكَلا حتى فتحت نيرانها على المجاهدين، حيث استمر القتال[164] من طلوع الشمس إلى الزوال، تراجعت خلالها فلول

---

160 م. س. ن.

161 م. س. ن.

162 التحري الميداني.

163 القول الجامع.. م. س. ص. 32.

164 يمكن أن نسمي هذه المعركة معركة إمس ما إمتزمايز، وهو المكان الذي دارت فيه أطوارها. يوجد هذا الموقع على الحدود بين قبيلتي هنتيفة الجَبل وأيتَ مصاض، على مشارف وامتداد الطريق الرابطة بين أيت تاكَلا وشلالات أوزوض.

المجاهدين إلى المرتفعات الغابوية المشرفة على أزيلال من الجنوب والشرق والشمال.

لكنهم ما لبثوا أن تحيزوا إلى جهة الشمال، صوب أيت عتاب، حيث وعورة التضاريس وكثافة الغابة، لتكون ردء لهم، يتحصنون بها في الوقت المناسب. في ذلك الوقت كان الفرنسيون قد وجهوا مدافعهم نحو أزيلال، الأمر الذي أجبر سكانها على الاستسلام[165]. فدخلها الغزاة في اليوم التالي، وخيموا بها شهرين، شرعوا أثناءها في تأسيس مركز أزيلال الذي تضمن ثكنة عسكرية ومكاتب إدارية، حيث تم تعيين ضابط للشؤون الأهلية فيما بعد، ليغدو [ذلك المركز] منطلقا لتطويع باقي قبائل تلك الجهة[166].

وفي الوقت ذاته، أقام القسمان الآخران من الحملة مضاربهما حسبما سبق، محلة الحاج المدني يمنة، فوق ربوة تدعى تامرزوقت؛ والمحلة المشتركة بين القائدين أوشطو وأوراغ يسرة. وتبعد كلاهما عن المحلة التي يرأسها الضابط الفرنسي بمسيرة ساعة تقريبا. أي أنهما كانتا تحتلان المواقع الأمامية. وأمام هذا الوضع، لم يبق أمام المجاهدين إلا خوض حملات قتالية فجائية، تدبر ليلا. وقد نجحوا في ذلك نجاحا بهر دهاقنة الجيش الفرنسي يومئذ. يقول المؤلف: "أما القتال، فإذا جاء الليل وأظلم الحال، يضرب السياب بالقرطاس جنود الفرنسيس لقربها من غابة البلوط هناك. ولا تخطيء لهم قرطاسة واحدة؛ وفي الصباح توجد القتلى والجرحى في جنود فرنسا وبهائمهم، من الخيل والبغال، ويقابلونهم بالمثل، فيصبحون كذلك"[167].

استطاع المجاهدون، بفضل عزيمتهم وصبرهم وثباتهم، إيقاف الزحف الاستعماري"أكثر من عشرين يوما". ومما تجدر الإشارة إليه أن المجاهدين كانوا - في أثناء قتالهم - يصوبون ضرباتهم نحو الفرنسيين، أكثر مما كانوا يفعلون إزاء بني جلدتهم. وهذا ما لاحظه

---

[165] م. س. ن.

[166] م. س. ص. 33

[167] م. س. ن.

الضباط الفرنسيون حتى ظنوا أن مقاتلي الحملتين المرافقين لهم قد تمالأوا ضدهم مع المجاهدين. فلم يهدأ لهم بال حتى انضمت الحملتان إلى معترك القتال، بمشاركة فعلية من لدن الحاج المدني، حيث "نزل من علا [كذا] فرسه، وأخرج بندقيته يضرب بها الفساد، لولا أن نهاه الضابط الفرنسي، خوفا عليه من القتل أو الأسر"، لأنه كان يَقْدُرُ ما له من مكانة ونفوذ في عمليات تطويع قبائل تلك الجهة[168]. فتراجع المجاهدون منهزمين في بدء القتال، لكنهم سرعان ما تداركوا الأمر، فكرُّوا على المعتدين، ليكبدوهم خسائر بشرية جسيمة، ويجبروهم على الانسحاب إلى مركز أزيلال[169]. وقعت هذه المعركة يوم الجمعة خامس عشر صفر عام 1917/1335[170].

وصف الغجدامي هذه المعركة فقال":فكنت أنا مع أفراد بأعلا كدية.. فرأيت السياب يقتحمون الغابة لدخول الكور، والعدو محيط به يضربون الخارجين منه، ويتساقطون أمام الكور، والناس يطأون على القتلى، والسياب يقصدون الدخول للكور. ولما عاينت الجنود الفرنساويون ما وقع من القتلى والجرحى في باب الكور، والسياب كادوا أن يدخلوه، هنالك نصبوا المدفع، فضربوا بقنبلة وقعت أمام الكور، أصابت طرفا منهم، ثم ضربت بقنبلة ثانية سقطت بأعلا الأولى، فازدادوا فرارا، ثم ثالثة، ثم رابعة، فقطعوا البارود هاربين في وسط الغابة تاركين أمام الكور عددا من القتلى والجرحى"؛ قبل أن يوجز وقائعها في كلمات معدودة ليقول: "فلولا المدافع لمزقوا الكور وما فيه شر ممزق"[171]. وإذا كانت دلالات هذا النص كثيرة ومتنوعة، فلا ينبغي أن نتجاوزه قبل الإشارة إلى أن المجاهدين كانوا يقاتلون بشجاعة منقطة النظير؛ الأمر الذي أجبر الفرنسيين، الذين كانوا مخيمين بعيدا عن المحلتين اللتين يتزعمهما القواد الثلاثة[172]، على قصف الجميع دون تمييز بين الأعداء والحلفاء، مما يدل على فظاعة الهزيمة.

---

168 م. س. ن.

169 القول الجامع.. م. س. 33.

170 م. س. ن.

171 م. س. ن.

172 سبقت الإشارة إلى أن حملتي الحاج المدني وأوشطو أوراغ كانتا متقدمتين عن الحملة التي يقودها الضابط الفرنسي بحوالي ساعة.

هـ. المدني الاكَلاوي يحاول استقطاب بعض السذج :

نقل المؤلف وصفا لبعض أعمال الاستقطاب التي قام بها الحاج المدني، لما كانت محلة الغزاة مخيمة بأزيلال، لاستمالة الممتنعين، حيث كان يقوم باستضافة بعض السذج لتناول الشاي والحلوى، ويقدم الهدايا المالية لذوي النفوذ[173]. من ذلك مثلا، أنه لما قدم عليه بعض الذين استسلموا من أيت مصاض صحبة شيخهم الكبير، أمر بزيادة المؤذنين، حتى بلغ عددهم أحد عشر؛ فلما حان وقت الصلاة سمع الحاضرون الأذان في مختلف "جهات الكَور فقالوا للفقيه: هل هذا الأذان عندكم؟ وقد قيل لنا: إن الفقيه السيد المدني جاء مع النصارى، وهو على دينهم؛ فأجابهم: حاشا ومعاذ الله، ما نحن إلا مسلمون مؤمنون، ولكن النصارى خرجوا علينا من البحر بقوتهم، وتبعهم المسلمون قبلنا، وتبعناهم نحن من أجل سلامة أرواحنا وأولادنا ومتاعنا"[174].

ومنها، أنه لما قدم عليه مبعوث من قبل شيخ إحنصالن، قدم له هدية وقال:"سلم على المرابط، وقل له: إن النصارى لا يمنعون أحدا من دينه، ولا يظلمونه في دينه ودنياه. فليتقدم على بركة الله، فإنك لا ترى إلا ما يسرك؛ فإن كنت في رتبة فستزداد رتبتك. فزوده الفقيه بمائة ريال صلة منه للمرابط."[175]. لكن ذلك المبعوث لم يكن سوى جاسوس، قدم لنقل الأخبار عن محلة العدو. ومما يؤكد هذا أن المجاهدين قاموا - بعد يوم واحد فقط - بحملة واسعة، أصابوا في أثنائها عددا كبيرا من الأهداف؛ ولولا لجوء الفرنسيين إلى المدفعية ل"أكِلتْ" الحركاتُ التي كان المدني المزواري على رأسها، إذ لم يستطع الفرنسيون رد الهجوم إلا بتوجيه قذائفهم نحو "الكَور"[176]، عامدين إلى قصف الموالين والمعادين في الوقت ذاته، لأن المجاهدين التحموا بجيوشهم[177].

---

[173] م. س. ص.34. وقد بعث للحنصالي بمائة ريال، صلة له.

[174] م. س. ن.

[175] م. س. ن.

[176] لفظة الكَور، بجيم مصرية، معناها في هذا النص، مضرب المحلة. ويقابلها أفراكَ في العرف المخزني.

[177] م. س. ص. 35.

و. معركة بوصالح واستسلام أيت عتاب:

وبعد هذه الهزيمة النكراء، اضطر الضباط الفرنسيون إلى إصدار الأوامر بالتراجع، مرة أخرى، إلى مركز أزيلال؛ حيث مكثوا طوال شهر، قصد إعادة ترتيب حساباتهم؛ ومنه قرروا الانعطاف إلى أيت عتاب. وفي طريقهم إليها وقعت معركة أخرى، بالقرب من جبل بوصالح، ظل فيها القتال متواصلا"من طلوع الشمس إلى أن بقي للغروب يسير من الزمان"[178]. نقل مؤلفنا وصفها عن شاهد عيان قائلا: "قال كاتب القائد السيد عبد المالك...في وصف القتال الواقع بين السياب وبين الجنود الفرنساويين وغيرهم بأنه كان عنيفا جدا، وشديدا؛ قتل فيه من ضباط فرنسا عدد كبير من الكبرانات والفسيانات. وكان رئيسهم الكبير القبطان شاردون.."[179].

وقد عمد المجاهدون إلى اتباع مسالك متوازية مع سير الغزاة، متحصنين بالمرتفعات التي تكسوها الغابة، ثابتين في اختيار مواقعهم، صامدين على الرغم من قساوة الجو الذي شابه أحيانا تساقط الثلوج[180].

وأمام ضربات المجاهدين المفاجئة، وهجوماتهم الخاطفة، لم ينفع الغزاة سوى اللجوء إلى سلاح المدفعية، الذي ظل يقض مضاجع مختلف سكان تلك الجهات. قال مؤلفنا واصفا هول القصف الذي قاموا به حين ضيق عليهم المجاهدون، بالقرب من مشرعة واد العبيد الواصلة بين هنتيفة وأيت عتاب:"ونصب الضابط الفرنسوي مدفعا كبيرا من القشلة، وتسقط قنابله على ديارهم، لأن القنبلة إذا خرجت من المدفع يسمع لها دَوِيٌ كالرعد، وتُرَى في الجو كجمرة من نار، وإذا نزلت في مكان سُمِعَ لها كصوت الزلزال، وإذا نزلت على بناء جعلته دكا"[181]. فاستمر ذلك القصف طوال المسافة الفاصلة بين أزيلال وأيت

---

[178] م. س. ص. 36.

[179] م. س. ن.

[180] تحدث المؤلف عن كثافة الثلوج التي سقطت في تلك الأثناء، م. س. ن.

[181] م. س. ن.

عتاب، حتى بلغت المحلة "وطا أيت عتاب"[182]، التحق بها طابور جديد، قادما من تادلا، لتعزيز قوتها. وأمام ضغط هذه المحلات القادمة من الجنوب، والطابور الآتي من الشمال، لم يسع قبائل أيت عتاب إلا إعلان خضوعهم للفرنسيين الذين خيموا بعد ذلك، بالقرب من ضريح مولاي عيسى بن إدريس، طوال أسبوع كامل[183]. ويذكر المؤلف، نقلا عن الغجدامي، أن الحاج المدني أقام الأفراح، بما كان يرد عليه "من الشيخات المغنيات والشيوخ المغنيين"، طوال السبعة أيام التي مكثها في أيت عتاب[184]. ولم تبرح المحلات مخيمها حتى عين الحاج المدني أحمد البزيوي قائدا على أيت عتاب، قبل أن يتوجه بعد ذلك إلى أزيلال، ومنها إلى تنانت، فدمنات التي مكث بها مدة أسبوع، ثم ألقى عصا التسيار بمدينة مراكش[185].

ز. معركة أيت محمد الكبرى:

بعد أن أفلح المجاهدون في إيقاف زحف الغزو الفرنسي على القسم الأكبر من أيت مصاض، ومن جاورهم من القبائل طوال سنة كاملة، أجبر الغزاة على التراجع إلى مراكش، ليتفقوا من جديد مع الاكلاوي على توجيه حملة قوية ضد المجاهدين تدعمها حركات المزواري وأشطو وأوراغ. ولما حلت تلك الحملة بتنانت حيث بات الحاج المدني لِيُبَيِّتَ المجاهدين بهجوم جديد، بدون دعم الجانب الفرنسي؛ لكن أوشطوعارض صهره بشدة، وعبر صراحة، عن عجزه أمام المجاهدين لأنه كان يعرف شجاعتهم وثباتهم، فغدا مقتنعا بأن هؤلاء لا يردهم إلا ما توافر للغزاة من سلاح المدفعية والقنابل[186]. وهذه فقرة معبرة عن جوابه، حيث قال:"فإننا إذا قصدناهم وقاتلناهم، لا

---

[182] م. س. ص. 37.

[183] م. س. ن.

[184] م. س. ص. 37.

[185] م. س. ص. 38.

[186] القول الجامع.. م. س. ن.

نأمن أن يجتمعوا كلهم ليدفعوا عن أنفسهم وأموالهم وأولادهم وبلادهم". ثم أردف ذلك بما هو أهم، لما قال:"أما إيالتنا وحكومتنا، نحن الذين سيذهبون معنا، فلا شك أنهم يذهبون معنا مرغمين مكرهين، غير طائعين، بل مجبورين على القتال. وإذا تقابل الفريقان لا محالة ترى النتيجة، وهي هزيمتنا التي نرجع بها، مع المعرة التي لا تمحى مدى الدهر"[187]. يبدو أن أوشطو، وهو يساير الغزاة مكرَها، كان يدرك تمام الإدراك أنه يخدم قضية لا يؤمن بها. ومن ثم، فهو يميز بين الذين يقاتلون في سبيل قضية، وبين من جندهم الفرنسيون والأكلاوي، من مرتزقة، سيقوا إلى القتال كرها.

لكن إلحاح أوشطو على ضرورة إشراك القوات الفرنسية في مقاتلة المجاهدين، قد منح سلطات الحماية مبررا لخوض تلك الحرب، وهو ما كان ينتظره الضباط الفرنسيون. في هذا السياق اتفق الحاج المدني وعبد الله أوشطو والضابط الفرنسي في تنانت، حيث اجتمعت الحركات من جديد، على الزحف على القبائل الممتنعة عن الخضوع[188]. فبعد أن عقد الفرنسيون اجتماعا حضره عاملا هنتيفة، صالح أوراغ وعبد الله أوشطو، زحف الجميع، بالمدافع والطائرات؛ وبعد أن نظموا كيفية سيرهم انطلاقا من أزيلال، لم يخيموا إلا بموقع برنات، الواقع جنوب غربي أيت مَحمد، يوم الثلاثاء حادي عشر شوال 1918/1336.

هنالك أيضا وزع الفرنسيون الأدوار، فاختاروا لكل حركة موقع نزولها، حيث اعتلت حركات كل من الحاج المدني وأوشطو وأوراغ الروابي المشرفة على أيت مَحمد؛ بينما احتل الفرنسيون وجنودهم البسيط من الأرض، حتى يكونوا محميين من ضربات المجاهدين[189]. وبعد انتظار ثمانية أيام من لدن الغزاة، الذين كانوا يسعون إلى الفت في عضد المجاهدين، وتوهين عزائمهم عن طريق استعراض القوة، بدأوا

---

[187] م. س. ن.

[188] م. س. ص. 39

[189] م. س. ن.

بشن الهجوم. وللإشارة فقط، فقد نظم الضابط الفرنسي سير الحملة على الشكل التالي: احتلت حركة هنتيفة الميمنة، وحركة المدني المزواري الميسرة، والأثقال مع الدواب في القلب، بينما اختار الجنود الفرنسيون الساقة[190]. معنى هذا أن المجندين المغاربة كانوا هم الذين يواجهون دائما الالتحام، أي الموت المحقق، لأن رؤساءهم أوكلوا إليهم القيام بمطاردة المجاهدين.

ومن ثم، فقد تعرضوا كثيرا للوقوع في كمائن المجاهدين، بينما اقتصر دور الفرنسيين ومرتزقتهم، على حماية الدواب والأثقال، والضرب من بعيد، وبالتالي تفادي الموت، ما أمكن[191]. وبالمقابل ظل المجاهدون محافظين على طريقة الهجوم المباغث، أوفياء لعنصر المفاجأة، لا تحميهم إلا الغابات القليلة وأوعار التضاريس. وهكذا ابتدأ القتال على الساعة العاشرة صباحا، ليستمر حوالي ساعتين، أصيب أثناءها معسكر الحاج المدني الذي انطلقت منه شرارة القتال، بنكسة قوية، لأن موقعه كان يسامت الغابة التي لاذ بها المجاهدون. ذلك أن ابنه عبد المالك قد أصيب برصاصة، كان فيها حتفه. كما قتل أو جرح عدد كبير ممن كانوا يقاتلون معه. فكانت تلك طعنة قوية كالها المجاهدون للغزاة؛ إذ لم تكن بمثابة انتصار فقط، بل إنها تدل على استطاعتهم اختراق معسكر عدوهم متى شاءوا. وهذا ما جعل الغزاة يشكون في قدراتهم الحربية، وأفقدهم الثقة في نفوسهم، وفي حلفائهم.

يذكر أحمد نجيب، في غضون حديثه عن تلك المعركة، أن الفرنسيين ألقوا القبض على أحد جواسيس المجاهدين داخل محلتهم، فأتوا به إلى الحاج المدني ليرى فيه رأيه؛ فلم يشفِ غليله إلا بعد أن جلده وأمر بقتله. بعد ذلك أمطر الفرنسيون بوابل قذائف مدفعيتهم الثقيلة مداشر أيت مَحمد، بطريقة عشوائية، طوال نصف يوم. ثم ولوا الأدبار، يجرون ذيول الهزيمة مرة أخرى، لأنهم أدركوا أن المجاهدين كانوا يسعون إلى فصل حركتي المغاربة عن حركة الفرنسيين، ليمحقوها بالمرة[192].

---

190 القول الجامع.. م. س. ن.

191 م. س. ن.

192 م. س. ص. 40.

وعلى الرغم من التفوق البيِّن لقوات الفرنسيين وأذنابهم، فقد استمرت المعارك هذه المرة سبعة وعشرين يوما، لم يَبْدُ على المجاهدين أثناءها إلا المزيد من الحماس والصمود والتضحية[193]. وعلى إثر ذلك تم الاتفاق بين المدني المزواري وسلطات الحماية على إيقاف الحرب مؤقتا، حتى يتمكن العسكريون من التفكير في السبل الكفيلة بكسر مقاومة القبائل. ومن ثم، رأوا أن الظروف لم تكن ملائمة لمواصلة المعارك. وفي الوقت ذاته، ولي قيادة دمنات عمر المزواري، خلفا لأخيه عبد المالك، القتيل في معارك أيت مَحمد. ولم يَمْضِ إلا بضعة أيام حتى توفي الحاج المدني خاسئا، يوم الثلاثاء ثامن ذي القعدة 1918/1336[194]، فآلت الإيالة التي كانت تحت سلطته إلى صنوه الحاج التهامي، الذي نسج على المنوال نفسه. إلا أنه أمر بفصل قبيلة فطواكه عن قيادة ولتانه، لإحكام القبضة عليها، ولأنه لم يكن واثقا في ولائها للمخزن الجديد[195].

6. إفادات متفرقة اجتماعية واقتصادية وثقافية من إينولتان وما جاورها :

أمسك أحمد نجيب عن الحديث عن باقي الوقائع التي جرت بين سكان جهة أزيلال وبين الغزاة الفرنسيين بدون أن يفصح عن السبب، على الرغم من أن المعارك استمرت، في هذه المرحلة، حتى استسلام مح الحنصالي سنة 1923. ولعل ذلك ما جعله ينصرف إلى سرد بعض مكونات تاريخ دمنات الأخرى، فذيل مصنفه بذكر بعض مجاذيب المدينة وصلحائها، ممن ترجمهم الغجدامي، مردفا ذلك ببعض كراماتهم[196]. كما عدد زوايا المدينة وأضرحتها، ومن اشتهر من صلحاء ولتانه عامة. وذكر مساجدها الجامعة، ووصف بعض مرافقها،

---

193 م. س. ن.

194 م. س. ص. 41.

195 م. س. ص. 42.

196 م. س. ص. 64.

وبعض من صلى فيها من الرؤساء والحكام، وما شهدت من وقائع وأحداث[197]. وقد استطرد هنا فترجم نفسه، وجلب أخبارا فريدة، عن سيرته الذاتية، وأماكن القراءة والدراسة التي ارتادها، وعمن أخذ من الشيوخ[198]؛ ثم عرض إلى الخطط والوظائف التي تصدر لها. وجلب هنا وثائق مفيدة، أثبتها في مؤلفه. منها على سبيل المثال نص الخطاب الذي ألقاه القائد عمر الاكّلاوي أمام الوفد الذي قدم على رأسه الجنرال فوجير والتهامي الاكّلاوي، بمناسبة تدشين مسجد قصبة دمنات[199]. وأردف ذلك بترجمة والده الذي عده عمدته في التحصيل، مستطردا بذكر الشيوخ والقراء المشهورين يومئذ في تلك الجهة[200].

كما نقل ترجمة الفقيه محمد الغجدامي، وتراجم بعض الأعلام كالبوجمعوي وغيره، ممن اشتهروا في ميادين العلم أو القضاء أو الشهادة أو النظارة[201]. وهنا لا بد من الإشارة إلى أن المؤلف سجل، في ثنايا تراجمه، بعض التطورات التي شهدها ميدان القضاء، فيما بين عهد الحماية والاستقلال. وعقد مسردا بمن عُرفَ من بيوتات دمنات، وما جاورها، وأصولهم، ومن نبغ منهم[202]. وعرج عن الحديث على أصول الثروة عند الدمناتيين، ولاسيما التجارة والأسواق والمعادن. ولم ينس أبرز قضية تهموا لها طوال تاريخهم، وبخاصة الماء وما كان يثير من مشاكل، ترتبت عنها أحيانا صراعات دموية. كما اختتم مؤلفه بفقرات نقلها عن القائد عمر المزواري، تتصل بأوصاف موجزة لبعض القبائل المجاورة لإينولتان، والتي كان لها اتصال بدمنات، كفطواكة وهنتيفة والسراغنة وزمران وغيرها، يبدو من تضاعيفها إفادات عن التاريخ والاجتماع والأنتروبولوجا.

---

197 م. س. ص. 68.

198 م. س. ص. 69.

199 القول الجامع.. م. س. ص. 72.

200 م. س. ص. 77.

201 م. س. ص. 77ــ 82. وقد ترجم عشرة من القضاة، وستا وعشرين من العدول.

202 م. س. ص. 94.

وبالجملة فقد جاء كتاب "القول الجامع في تاريخ دمنات وما وقع فيها من الوقائع "ليضيف تاريخ مدينة دمنات إلى تواريخ المدن المعروفة، كفاس ومكناس ومراكش وتطوان والرباط والصويرة وغيرها، محاولا تبيان هوية هذه المدينة العريقة، وما توافر لها من إمكانات منحتها خصوصيتها بين المدن المغربية.

خـاتمـة :

لا بد، في مختتم هذا المبحث، من الإشارة إلى أن موقف المؤلف من الأحداث التي سجلها، لم يكن موضوعيا دائما، على الرغم من أنه قد لا يجد حرجا في تحري الحقيقة إن أراد، لأنه ألف كتابه بعيدا عن ظلال صناع تلك الأحداث. فإذا كان لا يكفُّ عن تمجيد المزواريين، وهو مستيقن من أنهم قدموا خدمات كبيرة للغزاة الفرنسيين، في أثناء تطويعهم للقبائل، ولم يستطع في الوقت ذاته، أن يُخْفِيَ عطفه، على المنتفضين من إينولتان، ولاسيما أسرة أبلاغ التي قادت الانتفاض ضد كل من القائد الجيلالي الدمناتي وعلال المزواري، فإنه لم يميز بين المنتفضين ضد عسف القائد المخزني واستبداده على رعاياه، وبين المجاهدين الذين ركبوا كل صعب لمقاومة التغلغل الفرنسي في البلاد. فنعت الفريقين كليهما ب"السياب"، أثناء تطرقه للمعارك التي أُجْبِر المغاربة على خوضها دفاعا عن أنفسهم وأرضهم.

ولا إخال أبدا أنه لم يكن يدرك جيدا مدلول تلك اللفظة، على الرغم من أنه استنكف عن استعمال لفظة "البغاة"، لما لها من دلالة شرعية خطيرة. فإذا كانت السيبة - في هذه الحال - تدل على الخروج عن الجماعة، والابتعاد عنها، فإن ما يبرر ذلك هو استبداد الحاكم وجوره. أي أن السيبة تعدل الانتفاض ضد الاستبداد والجور، والمطالبة بحقوق ضائعة. وهي ليست من البغي الذي يعني التمرد، والخروج عن الجادة. طمعا في الحكم. أي أن الباغي عادٍ، ظالم، لأنه سعى إلى الفرقة والفتنة. ومن ثم، فالفرق بين السيبة والبغي واضح بيِّن.

لكن إذا قبلنا جدلا استعمال لفظة السيبة بالنسبة لانتفاض قبيلة ما على ممثل المخزن، في نظر فقيه، لا شك في أنه يستحضر خطورة الخروج على الحاكم، فإننا نَرُدُّ إطلاقها على حركة أناس أشباه عزل رفضوا الخضوع لسلطة، يعرفون أنها تستهدف قهرهم، فناهضوها دفاعا عن أنفسهم وأرضهم، ضد غزاة شنوا عليهم حربا، مستعملين كل أنواع أسلحة الدمار المعروفة يومئذ. ومن ثم، فلا نلتمس لمؤلفنا عذرا سوى أنه قفا أثر من أخذ عنهم[203]، ولم يتنبه إلى ضرورة رد الأمور إلى نصابها، عن طريق إنصاف كل طرف، على الرغم من أنه ردد أكثر من مرة أن أولئك "السياب"، "كانوا يدافعون عن أرضهم وأولادهم وبلادهم".

المبحث الخامس: منهج ضبط النص وعملي فيه

1- طبيعة المخطوطة :

أود أن أشير، قبل أي شيء، إلى أنني كنت كلما قرأت هذا النص، كلما أدركت أنني رميت بأشهب بازل، لأن بنيته تختلف كثيرا عن النصوص المعتادة. فقد قدم مؤلفه وكرر، وأطنب واختصر، حتى تعسف على النص أحيانا. ومن ثَمَّ، فقد عمدت إلى تجميع الموضوعات الرئيسة التي تتوزع أحيانا بين الفصول، وأعدت صياغتها لتقريب مضامين النص إلى القراء. وهنا ينبغي ألا أنكر فضل مؤلف الغدامي الذي ساعدني كثيرا على وضع تصميم جديد لمؤلف الحاج أحمد نجيب.

2 - وصف المخطوطة :

تتكون هذه المخطوطة من إحدى عشرة ومائة صحيفة من القطع الكبير 20X28، بمتوسط 33 سطرا في الصحيفة؛ وفي كل سطر 16 كلمة. كتبها مؤلفها في مفكرة، يرجع تاريخها إلى سنة 1953، كانت

---

[203] لا نحتاج إلى تكرير القول إن موقف كل من الفجدامي وعمر الاكَلاوي مبرر بكونهما من خدام المخزن؛ ومن ثم يبدوان منحازين بشكل سافر. أما مؤلفنا فقد ألف في ظل الاستقلال.

بمثابة سجل، أثبت مالكها الأول على بعض صفحاتها جريدة مداخيل ونفقات، قبل أن تؤول، بعد ذلك، إلى السيد أحمد نجيب لتتحول إلى المخطوطة التي أتناولها في هذا التقديم.

كتبت المخطوطة بخط مغربي قريب من المبسوط، مما اعتاده العدول المغاربة؛ بمداد صناعي أسود، تتخلله ألوان. فأما عناوين الفصول فقد كتبها بخط ثخين عدَّدَ ألوانه بين الأحمر والأخضر والبنفسجي. وأما رؤوس مسائل النص فكتبها باللون الأخضر. كما عمد إلى تمييز بعض الاستشهادات وأسماء الأعلام بلون مغاير. ولم يحُلْ ترقيمه للصفحات دون استعمال التعقيبة أو الرقاص. والمخطوطة كاملة، باستثناء بياضات قليلة تركها المؤلف لتتميمها بما كان يأمل الحصول عليه من معلومات، وبخاصة من مؤلَف عمر الأگلاوي[204] الذي ظل متعلقا بالعثور عليه طوال مدة تحرير كتابه. وقد وضع لمحتويات مؤلفه فهرسا مفصلا في البداية، أبقينا عليه، كما هو، حفاظا على الأمانة العلمية.

3 - عملي في ضبط النص:

سبقت الإشارة إلى أن هذه المخطوطة نادرة، لم أعثر على نسخة منها في الخزانات المعروفة، سواء منها العامة أو الخاصة. ولذلك فأنا لا أدعي أنني قمت بتحقيق النص، لأن ذلك يقتضي المقابلة والمقارنة. وهذا أمر متعذر في هذه الحال. لكنني ركبت مغامرة قراءة النص ومحاولة ضبطه بالرجوع إلى مظانه الرئيسة، وبخاصة كتاب التسلي، و"ورقات"عمر المزواري[205]. وقد لاقيت عنتا كبيرا في التعامل مع

---

[204] سبق التعريف به وبمؤلفه عند ضبط النص.

[205] عدد أوراقه ثلاث وأربعون، كتبت بخط بدوي مختلف، وضع لها فهرسا احتوى على ما يلي: 1. ذكر ما بدمنات من الآثار، 2. ذكر من تولى دمنات، 3. ذكر علماء دمنات، 4. ذكر قضاة دمنات، 5. ذكر دمنات ومن بناها، والمدينة القديمة، 6. ذكر من تولى الحسبة بدمنات 7. ذكر دخول دمنات، وكم مرة أكلها السياب 8. ذكر نواحي دمنات وأعيانها وسكانها. وقد أضاف تحت كل "باب" مباحث لتفصيل القول في بعض عوائد دمنات، وتفاصيل حول طبقات سكان دمنات الخ...وقد حصلنا على أربعة عشر منها، حاولنا أن نقارن بينها وبين ما نقل عنها مؤلفنا، فوجدنا أنه تصرف فيها كثيرا بالاختصار والتقديم والتأخير. وأشرنا إلى ذلك ب"أوراق الحاج عمر".

المصدر الأخير، لأنه كتب بخطوط رديئة، فضلا عما عرا أوراقه من تلف أضر بالنص. وتتبعت ببعض الدقة كل الفقرات التي نقلها المؤلف عن التسلي، وأثبت الفروق في الهوامش. وأعدت النظر في كثير مما شاع من أخطاء كانت سائدة يومئذ، في كتابة بعض النصوص العربية؛ كإسقاط الهمزات مثلا: في ياخذ بدل يأخذ، وقايد بدل قائد.. .

وقمت بتصويبت بعض الهفوات الإملائية المتكررة في مثل: اليل ولاكن... وحذفت حرف الألف المضافة في آخر أفعال المضارع الناقصة المنتهية بحرف الواو في مثل: نرجوا ونبدوا ونعدوا. وفي الوقت ذاته، كتبت بالرسم العصري، بدل الرسم القرآني الذي اعتاد كتاب الماضي اتباعه؛ الأمر الذي دفعني إلى تصحيح بعض الألفاظ مثل: تعلى، أيه، الصلوة، وغيرها. وصححت أيضا الهفوات المتصلة بالأسماء الخمسة، ولم أشر إلى ذلك في الهامش، باعتبار أن ذلك لا يُخِلُّ بالمنهج العلمي. لكنني ثنيت القلم عما شاب النص من هفوات لغوية أوأسلوبية، أو دلالية، محاولا فهمه في سياقه وبنيته.

وعمدت أخيرا، إلى نقط النص، تسهيلا لقراءته وتيسيرا لفهمه؛ فوضعت النقط والقواطع والفواصل والعارضتين وعلامات الاستفهام والتعجب. واستعنت بوضع بعض العلامات، كالمعقفتين للزائد والمستدرك؛ وحصرت الآيات القرآنية، والأحاديث النبوية، والأمثال والحكم والنصوص المقتبسة بالمنمنمتين. كما حصرت بين قوسين الطرر التي أدرجتها ضمن النص. وقد أشرت إلى بداية اللوحات برقم تسلسلي وضعته بين خطين مائلين.

ولتيسير قراءة النص وفهمه، قمت بوضع هوامش، ضمنتها تعليقات وشروحا واستدراكات، حسبت أنها قد تغنيه، وتبين مشكله، وتحل مغلقه. بل أردفت بعضها بتتميمات وإحالات مصدرية لتوثيقه، مقارنا له مع ما ورد عند الغجدامي، بصفة خاصة. ثم قمت بالتعريف ببعض الأعلام البشرية والجغرافية التي تستحق ذلك. وأوليت أهمية خاصة لكل ما له أصل أمازيغي، لأن الوسط الذي دارت فيه أحداث النص ووقائعه أمازيغي بالكلية؛ فعمدت إلى وضع ما قابل الألفاظ الأمازيغية بكل دقة، بالرجوع إلى ذوي الخبرة في اللسان الأمازيغي.

وكانت التحريات الميدانية هي معتمدي في تصحيح رسم الأعلام، والتعريف بالمواقع والأماكن، حيث وقفت على معظم ما ذكر منها في النص؛ مستندا باستمرار إلى ذاكرة بعض عرفاء البلدة، وما احتفظت به من اللغة/الأصل لفهم كثير من المصطلحات، ساعدني على ذلك ما وجدته عالقا بالأذهان، بسبب عدم بعده في الزمان. كما رأيت من الضروري أن أقوم بشرح كثير من الألفاظ التي بدا لي استعمالها خاصا ببلدان الشمال الأفريقي، أو بعض ما أضحى تداوله قليلا، ولاسيما لدى الجيلين الأخيرين من المغاربة.

كان ذلك، بالنسبة إلي ذريعة توسلت بها لاستخراج الإشارات التاريخية الهامة، التي عمدت إلى توثيقها للزيادة في توضيحها، وتيسير فهمها، وإثارة بعض القضايا الكبرى، تمهيدا لبسط القول فيها عند تناول مضامين النص. وأثبت بالخريطة والرسم ما عنَّ لي إثباته مما ذكر في النص من أماكن ومواقع.

وقمت أخيرا بتذييل الكتاب بفهارس مما ذكر في النص من آيات قرآنية وأحاديث نبوية، وقواف، وأعلام بشرية وجغرافية وكتب.